ساعتان مع الفراعنة

تأليف

محمد محمد فياض

الكتاب: ساعتان مع الفراعنة

الكاتب: محمد محمد فياض

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
فياض، محمد، محمد
ساعتان مع الفراعنة / محمد محمد فياض
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٩٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٤ – ١٢٧ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٣٧٦٤ / ٢٠٢١

ساعتان مع الفراعنة



مقدمة

هذه صفحات من تاريخ مصر الخالدة، أبسطها بين يدي النشء تعله يجد في قراءتها متعة، ويلمس بين سطورها الدليل الصادق على أن مدنية الفراعنة تناولت نواحي شتى من الحياة .. فنية وعلمية واجتماعية واقتصادية ووطنية وعاطفية. ولم تتقيد هذه الصفحات بموضوع خاص .. ولا بفترة معينة من القرون الخالية، ولكنها تضمنت حقائق متنوعة لها لقدماء المصريين البحوث والكشف الأثري. ويغلب على الظن أنها مجهولة للجانب الأعظم من فتياتنا. وإنه لمن أقدس واجباتهم أن يحيطوا علمًا بها ليدركوا مبلغ ما وصل إليه آباؤهم من عظمة واقتدار.

ونحن لا ننصف المصريين القدماء إذا قسنا مدنيتهم بما خلفوه من آثار فحسب أو بفتوحاتهم الحربية. فالأشوريون والبابليون والفرس كان لهم نصيب من هذه وتلك. وما كانت المدنية لتقاس بأمثال هذه المعايير. لأن دلالتها الحقة لا تظهر إلا في الثقافة العلمية والخلقية مع التدرج فيهما. وقد ازدهرت هذه الناحية في مدنية الفراعنة. وسيدرك القارئ هذه الحقيقة الساطعة عند تلاوته لهذه الصفحات.

محمد محمد فياض

الفصل الأَول
البحث العلمي عند قدماء المصريين

ليس هُناك شك في أن قدماء المصريين قد اشتغلوا بكثير من الفنون والصناعات، فقد أقاموا التماثيل وشيدوا المباني الضخمة وبنوا الأساطيل واستخرجوا المعادن من باطن الأرض. وكانت لهم خبرة بالملاحة وفلاحة الأرض والصباغة وصنع النبيذ وغزل الكتان ونسجه وقطع الأحجار وصقلها.

وقد أتقنوا الصياغة والتجارة وصيد البر والبحر وغير ذلك مما خلدوه في الرسوم التي لازالت شاخصة إلى الآن على قبور الأشراف في سقارة وآثار بني حسن. ورجع عهد الأولى إلى ما قبل سنة ٢٥٤٠ قبل الميلاد والثانية بعد هذا التاريخ بنحو ٦٤٠ سنة.

وكان المصريون أسبق الأمم إلى استعمال الفلزات الخالصة وقد بدئوا بالذهب والنحاس لأن الأول يوجد صرفًا في الطبيعة غير متحد بغيره من العناصر.

أما الثاني فكانت خاماته سهلة الاختزال وكثيرة الانتشار في شبه جزيرة سينا. ويأتي بعد ذلك الرصاص والفضة والحديد. وقد وجد في آثار أبيدوس مرآة مصقولة من النحاس وآنية وآلات صغيرة متخذة من هذا الفلز يرجع تاريخها إلى سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد.

ويوجد بالمتحف البريطاني تمثال مصري صغير مصنوع من الرصاص وهو من مخلفات الأسرة الأولى. وكان الحديد نادرًا في أول الأمر لصعوبة استخلاصه من خاماته فاستخدموه للزينة، وقد عثر العلامة بتري (petrie) في أحد القبور السابقة لعهد الأسر على عقد به حبات من الحديد وأخرى من حجر اللازورد (Lapis Lazuli) وقد وضع خوفو في هرمه بضعة قطع من الحديد. وشاع استعمال هذا الفلز بين المصريين منذ سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد تقريبًا

ويغلب على الظن أنهم كانوا يستوردونه من بلاد الحيثيين. فقد كشف المنقبون عن خطابين أثريين أحدهما من فرعون مصير لملك الحثيين يطلب منه رسالة من الحديد والآخر رد عليه من ملك الحثيين يريد بدل الحديد ذهبًا "هذا المعدن المنتشر كالتراب في أرض أخيه فرعون".

واشتهر المصريون بصنع البرنز واستخدموه في كثير من الأواني والأدوات، وهو سبيكة من النحاس والقصدير متينة شديدة الصلابة. وأقدم الآثار المصنوعة من البرنز ما عثر عليه بترى في ميدوم بين مخلفات الأسر الرابعة والخامسة والسادسة.

وكانت صناعة الفخار معروفة من أقدم العصور التاريخية والمصري هو أول من استخدم فيها العجلة واللوح الدائر التشكيل الطين. وأول من فكر في تجفيفه داخل أفران مغطاة. وفي قبور بني حسن ترى صورًا تمثل صناعة الفخار وطريقة صهر المعادن وتنقية الذهب الخام وصهره ووزنه.

وقامت صناعة الزجاج على نطاق واسع من عهد قديم وقد كشف البحث في تل العمارنة عن بقايا مصنع يرجع عهده إلى سنة ١٣٧٠ ق.م.

وحاول الصانع المصري أن يقلد الذهب والفضة وبعض الأحجار الكريمة كالزمرد وغيره ونجح في ذلك.

وهذه الفنون والصناعات التي مارس المصريون من عصور قادمة قد قامت ولا شك على أساس ما نسميه الآن "معلومات بدائية"، ومن المحقق أن طول خبرتهم بها قد أكسبتهم طائفة أخرى كبيرة من هذه المعلومات ولكن هذا لا يقوم دليلا على البحث العلمي فشتان بين العالم والصانع لأن غرض الأول نظري تحت وغرض الثاني على صرف أو بعبارة أخرى يريد الأول أن يعرف ورمي الثاني إلى أن يعمل.

ونحن لا نستطيع أن نستنتج من فنون المصريين وصناعاتهم أنهم حاولوا تعليل الظواهر الكونية على أساس من القوانين الطبيعية وهذا هو الغرض الأسمى للعلم. أو أنهم استنبطوا القوانين العامة التي تنقاد لها الظواهر المتشابهة واستخدموها في تنظيم معلوماتهم. أو أنهم درسوا ما وقع تحت حسهم من مواد وصنفوها وعرفوا خواصها ومميزاتها.

فبناء الأهرام مثلًا لا يدل على أن المصريين درسوا هندسة المجسمات واستنبطوا حجومها وسطوحها بالنسبة لأبعادها وفلاحتهم الأرض لا تثبت أنهم حللوا التربة وعرفوا العناصر الضرورية التغذية النبات.

وقد استعملوا المنزفة (الشادوف) من أقدم العصور ولكن ليس لدينا ما يشير إلى أنهم استنبطوا منها قانون الروافع أو طبقوا نظريتها في تحريك الأثقال كما فعل أرشميدس أثناء الدفاع عن سيرا كيوز (sura cuse) بصقلية إذ تمكن من أن يرسل وابلًا من المقذوفات الثقيلة على الرومان. أو أنها ألهمتهم النطق بمثل العبارة الخالدة التي قالها أرشميدس وهي "أعطوني مكانًا وأنا أحرك الأرض".

وقد استخدموا أيضا المنفاخ والماص ولكنا لا نجزم بأنهم عرفوا معنى التخلخل أو أدركوا "إن الطبيعة تأبى الفراغ".

أما ما ورد في أوراق ليدان البردية من أن النار تلتهم الرصاص فلا يتعدى مجرد وصف الظاهرة طبيعية ينقصه التعليل.

لهذه الأسباب أنكر مؤرخو العلوم على قدماء المصريين في أول الأمر اشتغالهم بالبحث العلمي. وقالوا إن هذا البحث نشأ أول ما نشأ في إيونيا (lonia) وكانت مقاطعة إغريقية على الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى، ظهر بها هومر في القرن التاسع قبل الميلاد وأنشد إلياذته فهزت مشاعر الإغريق ووصلت إلى صميم قلوبهم وتغنوا بها ورفعوها إلى درجة التقديس واتخذوها نبراسا مهتدون به في حياتهم.

والشخصيات التي خلفتها الإلياذة تمتاز بطابع خاص فهي ليست مسخرة بيد الآلهة وليست بآلات يحركها القدر ولكنها تتمتع باستقلال ذاتي. تشق طريقها في الحياة بمحض إرادتها وتحمل نتائج عملها. فاشيلس (Achilles) مثلا يرسم لنفسه خطة سيره في الحياة

قـائلًا إن الحيـاة القصـيرة مـع الشـرف خيـر مـن حيـاة طويلـة حقيـرة. ولـم يهمـل هـومر الآلهـة فكثيـرا مـا يـرد ذكرهـا فـي الإليـاذة ولكـن وضـعها وراء الستار ولم يجعل لها سلطانا على البشر.

لهذا نرى آجكس (Ajax) عندما خيمت على ميدان القتال سحابة كثيفة من الضباب يصلي لزيوس (zeus) كبير الآلهة ولكنه لا يلتمس منه الحياة ولا يرجو إبعاد الخطر ولكنه يطلب أن ينقشع الغمام ويصفو الجو حتى إذا أدركه الموت ودع الحياة وسط الضوء الساطع.

فـلا غرابـة أن تخلـق هـذه الشخصـيات مـن الإغريـق رجـالا يحـاولون تفسـير الظـواهر الطبيعيـة بعوامـل مسـتقلة عـن الالهـة مخـالفين فـي ذلـك المبـدأ الـذي سـاد فـي المـدنيات التـي سـبقتهم حيـث كانـت الحـوادث الطبيعية تنسب كلها لتدخل الآلهة.

ويقـال إن أول رجـل فـي التـاريخ أبـدى تعلـيلا للطبيعـة مسـتقلا عـن الآلهـة أو المـؤثرات الدينيـة هـو طـاليس (Thales) الـذي عـاش فـي بلـدة مليتس (Miletus) بأبونيا في أوائل القرن السادس قبل الميلاد وتتلخص النظرية التي اشتهر بها في عبارة قصيرة هي أن كل شيء في الطبيعة أصله من الماء .. واستنبط هذا الغرض من المشاهدة والتجربة.

فقـد لاحـظ أن الكائنـات توجـد علـى ثـلاث كيفيـات هـي المـاء والضـباب والتربـة، وأن المـاء يتحـول بالتسـخين إلـى ضـباب وإذا اسـتمر تسخينه تخلفت عنه بقية صلبة هي التربة.

وإذا برد الضباب تحول إلى ماء وإذا برد الماء تحول إلى جليد وهو ضرب من التربة. والماء في النهر يتحول إلى تربة ترسب في قاعه وعلى جانبيه. ولم تدرك طاليس أن المادة التي تتخلف عن الماء بعد تبخيره أو الرواسب التي تتراكم في مجرى النهر هي مواد كانت مذابة أو عالقة بالماء.

وبالرغم من أن فرض طاليس لا يتفق مع الحقيقة فقد سمي بالمعجزة الكبرى لأنه اعتبر أول نظرية كانت وليدة التجربة والمشاهدة.

والمتتبع لتاريخ البحث العلمي يرى أنه يبدأ بطا ليس ومدرسته في مليتس ثم ينتقل إلى الإغريق المقيمين في جنوب إيطاليا حيث ظهر العالم الرياضي الشهير فيثاغورس حول سنة ٥٤٠ قبل الميلاد بمدينة كروتون (Croton) وينتقل بعد ذلك إلى جزيرة كوس (Cos) وتسمى أحيانا ستنكو(Stanko) وهي واقعة بالقرب من الشاطئ الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى وفيها عاش أبقراط (Hippocrates) الملقب بأبي الطب.

ثم يصبح مركزه بأثينا حيث يتولاه سقراط وأفلاطون وارسطو. وتزدهر الإسكندرية بعد ذلك وتصير مركزا للبحوث العلمية بفضل معهد الميوزيوم[١] (Museum) الذي أنشأه البطالسة وضموا اليه مكتبة جمعت ما يقرب من ٤٠٠٠٠٠ مجلد بينها محتويات مكتبة أرسطو نفسه.

---

[١] معني الميوزيوم معبد التاسوع. والتاسوع تسع معبودات كن يشرفن على الفنون والآداب.

وقد تعهدوه بالعناية وزودوه بالمال واستحضروا إليه نخبة من العلماء وعلى رأسهم ستراتو (Strato) مدير معهد اللايسيوم (Lyceum) بأثينا.

ولسنا في حاجة إلى إثبات فضل الميوزيوم على العلوم إذ يكفي ذكر أسماء بعض من أبغوا فيه كافليدس وأرشميدس وأبولوتيوس وأراتوتسنيس.

واستمر هذا المعهد يؤدي رسالته نحو ٣٠٠ سنة بالرغم من الأيام العصيبة التي مر بها وانتهى أمره بالزوال بعد أن نهب جنود يوليوس قيصر الاسكندرية وحرقوا المكتبة بما فيها من كنوز وذخائر علمية.

ومرت بعد ذلك فترة خمدت فيها جذوة العلوم إلى أن أشعلها العرب في بغداد وحملوها إلى الأندلس وهناك انطلق شعاعها وانتشر في أوروبا.

ومما تقدم يتضح أن للبحث العلمي تاريخا يكاد يكون متصلا يبدأ بطاليس وينتهي بالعصر الحاضر، وبالرغم من أن المدنية المصرية أقدم من المدنية الإغريقية ببضعة آلاف من السنين وبالرغم مما هو معروف من أن المدنية الإغريقية لم تنشأ من الفراغ وأنها تغذت في أول عهدها من غدير المدنية المصرية فإن التاريخ قد حرم قدماء المصريين من فضل الاعتراف لهم بالبحث العلمي.

ولكن الحقيقة إذا احتجبت ردحا من الزمن فلابد لها من الظهور في منتصف القرن الماضي كشف البحث في مصر عن بمجموعتين من أوراق البردي إحداهما تسمى أوراق رانيد البردية (Rind Papryrus)

والأخرى أوراق أدون سمث (Edurin Smith) وقد استغرقت ترجمتهما أكثر من خمسين عاما واتضح أنهما وثيقتان تاريخيتان تثبتان أن قدماء المصريين قد اشتغلوا فعلا بالبحث العلمي بالمعنى المعروف في وقتنا الحاضر.

والمجموعة الأولى كتبت حول سنة ١٦٥٠ ق.م ولكنها منقولة من أصل وضع قبل ذلك بنحو ١٥٠ سنة. وهي مؤلف في الرياضة جمع الحقائق الآتية:

١) تمكن المصريون من وضع طريقة لكتابة الأعداد إذ كانت لهم رموز خاصة بالآحاد والعشرات والمئات وهكذا حتى المليون وبتكرار هذه الرموز سهل عليهم التعبير عن جميع الأعداد.

ولا شك أن الرومان أخذوا طريقتهم في كتابة الأعداد عن قدماء المصريين إذ لا يكاد يكون هناك فرق بين الطريقتين سوى أن الرومان استعملوا الحروف بدل الصور. ولا تخلو الطريقة الرومانية من التعقيد إذ فيها تطرح أحيانا بعض الأرقام وأحيانا أخرى تضاف.

٢) كانوا يجرون عمليتي الضرب والقسمة بتكرار عملية الجمع للأولى وعملية الطرح للثانية.

٣) اتبعوا طريقة خاصة في كتابة الكسور. والكسر عندهم اعتيادي بسطه دائما الواحد الصحيح ويعبر عنه كتابة بوضع المقام كأنه عدد مستقل ويشيرون إلى أنه كسر بوضع رمن الفم بجانبه.

وتظهر قدرة المصريين الحسابية في تعبيرهم عن الكسور التي تزيد مقاماتها عن الواحد الصحيح مجموعة من الكسور بسط كل منها الوحدة. ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

١٤/١ + ٢/١ = ٧/٤

٦١٠/١ + ٤٨٨/١ + ٢٤٤/١ + ٤٠/١ = ٦١/٢

٢٣٢/١ + ١٧٤ /١ + ٥٨/١ + ٢٤/١ = ٢٩/٢

ومن السهل جمع الكسور التي على الجانب الأيسر وإثبات أنها مساوية للكسر الذي على الجانب الأيمن ولكن عملية التحليل نفسها واستنباط الكسور المطلوبة التي بسطها الوحدة أمر يستلزم مهارة فائقة.

٤) عرفوا خواص بعض الأعداد فشلا كانوا يدركون أن ٢٣ + ٢٤ = ٢٥ وطبقوا هذه الحقيقة على المثلثات واستنتجوا أن المثلث الذي تكون أضلاعه مساوية ٣، ٤، ٥ به زاوية قائمة مقابلة للضلع الأكبر فتوصلوا بذلك إلى كشف حالة خاصة من نظرية فيثاغورس. وقد استخدموها في رسم الأعمدة.

٥) تحوي أوراق رانيد غير ما تقدم مسائل محلولة في الحساب والهندسة والقياسات وحلها يدل على منطق رياضي سليم. ومن أمثلتها طريقة نحت حجر زاوية تساوي زاوية هرم معلومة أبعاده. فإذا كان طول قاعدة الهرم ١٠ وحدات مثلا وارتفاعه ٨ يؤخذ على الحجر بعد طوله ووحدات صغيرة ويقام

من نهايتها عمود طوله ٨ من هذه الوحدات ويكمل المثلث فتكون الزاوية المقابلة للعمود مساوية للزاوية المطلوبة. ومن المحتمل أنهم اتبعوا هذه الطريقة في تحدت الأحجار اللازمة التغطية وجه الهرم وهي تستلزم المعرفة خواص المعاشات المتشابهة ولا ندري مبلغ على المصريين ها.

أما مجموعة أدون سمك السردية فقد أثبتت أن معلومات قدماء المصريين في الطب فاقت معلوماتهم في الرياضة. وهي مؤلف طبي يصف الأمراض التي تصيب جسم الإنسان، ومما يؤسف له أن جزءا منها أصابه التلف فتعذرت ترجمته.

والأعضاء المذكورة ها هي الجمجمة والأنف والفك والشفة والأذن والترقوة والكتف والصدر والثدي ثم العمود الفقري. والطريقة التي اتبعها المؤلف في كل حالة مرتبة ترتيبا فنية على النحو الآتي:

١) ذكر الضرر الذي يكون العضو معرضًا له.

٢) وصف الأعراض التي يشكو منها المريض.

٣) تشخيص المرض.

٤) الحكم بأن المرض قابل للشفاء أو تحتمل شفاؤه أو غير قابل للشفاء.

٥) وصف العلاج.

والمعلومات التي ذكرها المؤلف عن تشريح الأعضاء المختلفة غزيرة في مادتها ومطابقة الحقيقة بدرجة تثير الدهشة. أما طرق العلاج فقليلة ولكنها خالية من التعاويذ أو الالتجاء للآلهة. ولا شك أن هذه المعلومات بنيت على تجارب وملاحظات دقيقة امتدت عدة أجيال وهي على هذا الأساس قيمة لبحث علمي صحيح معناه الحديث.

وإذا عرفنا أن هذه الأوراق كتبت قبل سنة ٣٠٠٠ ق.م أدركنا مبلغ ما وصل إليه قدماء المصريين من رقي علمي في وقت لم يكن فيه للإغريق ذكر.

وكان طبيعيًا أن تحدث هاتان الوثيقتان تطورًا في تاريخ العلوم إذ راجع العلماء آراءهم وعدلوها وأعادوا للمصريين اعتبارهم واعترفوا بأنهم كانوا البادئين بالبحث العلمي وأن الإغريق كانوا عالة عليهم.

ومن هذا الوقت اجتمعت أدلة أخرى لم تدع مجالًا للشك في ذلك ومنها ما يأتي:

١) كان للمصريين أبجدية وضعوها قبل الميلاد بنحو ٣٠٠٠ سنة وتمكنوا بواسطتها من كتابة لغتهم وتسجيل تاريخهم وآداهم ووصف صناعاتهم وعاداتهم. وقد استعملوا الأقلام والحبر والورق قبل أن تستعملها أمة أخرى في التاريخ القديم. وتشمل هذه الأبجدية حروفا ومقاطع صوتية ثنائية وثلاثية. ومثل هذا العمل يستلزم بحثا في اللغة وفحصا دقيقين.

٢) إتقان بعض الصناعات المصرية لا يمكن أن يكون نتيجة الصدفة ومن أمثلة ذلك صناعة البرنز فقد أثبت التحليل أنه يحتوي على ١٢% من القصدير وهي النسبة الملائمة لضمان متانة السبيكة وصلابتها وقلة قابليتها للقصف وتحديد هذه النسبة يستلزم التجربة والمشاهدة وهما أساس البحث العلمي.

٣) ليس أدل على تقدم المصريين في البحث العلمي من طول ملاحظتهم للأجرام السماوية وتتبعهم أطوار انتقالاتها وقياسهم لحركاتها. فقد أدركوا منذ ٦٠٠٠ سنة أن طول السنة الشمسية ١/٤ ٣٦٥ يومًا وكانوا أول من رأى ضرورة وضع تقوم تكون فيه السنة المدنية أقرب ما يكون إلى السنة الشمسية وتحوي عددًا صحيحًا من الأيام فقسموا السنة إلى ثلاثة فصول في كل منها أربعة أشهر تحتوي كل منها على ٣٠ يوما وزادوا في آخرها خمسة أيام ليكون المجموع ٣٦٥. وهذا هو التقويم الذي نقله عنهم يوليوس قيصر سنة ٤٦ ق.م وأدخل عليه تعديلا جعل فيه السنة ١/٤ ٣٦٥ يوما باعتبار سنة كبيسة في كل أربع سنين يكون طولها ٣٦٦ يوما ولم يغفل قدماء المصريين عن هذه الناحية في حساهم فقد أدركوا أن منهم المدنية تتقدم يوما عن السنة الشمسية في فترة قدرها ٤ سنوات ويصل الفرق سنة كاملة لكل ١٤٦٠ سنة (٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠) وإذ ذاك يتفق مبدأ السنة الشمسية مع مبدأ السنة المدنية. وكانوا يدونون الفروق

بين السنين بدقة عظيمة وقد أطلقوا على الفترة التي تضم ١٤٦٠ سنة اسم دورة سيروس (Sirius) أو دورة الشعرى اليمانية وكانوا يقيمون عند بدئها احتفالًا فخمًا.

والطريقة التي اتبعوها في حساب هذا الفرق تتوقف على اليوم الذي اتخذوه مبدأ لأول سنة في تقويمهم فقد اتفق فيه فيضان النيل وشروق النجم سيروس في الصباح مع شروق الشمس، وقد أخذوا يرصدون هذا الاجتماع بين النجم والشمس فلاحظوا بعد مرور أربع سنوات مدنية أن سنتهم الخامسة تقدمت يوما كاملا عن الاجتماع. وبعد مضي ٨ سنين تقدمت السنة التاسعة يومين وهكذا حتى إذا ما مرت ١٤٦٠ سنة أصبح الفرق ٣٦٥ يوما وهو سنة كاملة واتفق مبدأ السنين المدنية والشمسية.

ونستطيع أن ندرك مبلغ رق قدماء المصريين العلي موازنة تقويمهم مع التقويم الذي استعمله الرومان قبل يوليوس قيصر إذ كانت السنة المدنية عشرة أشهر بمجموع أيامها ٣٠٤ وهذا لا يتفق مع السنة الشمسية أو القمرية ثم عدلوه فعلوا السنة ١٢ شهرا بمجموع أيامها ٣٥٤ لتتفق مع السنة القمرية وزادوا كل ٤ سنين شهرين بأحدهما ٢٢ يوما وبالآخر ٢٣ بوما ليكون طول السنة ١/٤ ٣٦٥ يوما.

وقد أدى هذا التقويم إلى تعذر استعمال التقويم واضطراب في حساب الشهور وافترقت السنة المدنية عن السنة الشمسية بفترات طويلة حتى لوحظ في عهد يوليوس قيصر أن الاعتدال الربيعي في الأولى يفترق عنه في الثانية ثلاثة شهور ووقعت الشهور الشتوية في الخريف

وشهور الخريف في الصيف.

٤) في الرسوم التي خلفها قدماء المصريين نرى آثار ملموسة لمبادئ علمية لا تأتي إلا عن طريق البحث ومن ذلك صور الموازين التي كانوا يستعملونها ففيها يلاحظ أن ذراعي القب مساويا الطول والكفتين مطابقتان وقد استعملوا خيط الطمار الذي يكون في وضع رأسي وموازيًا لحامل القب دلالة على أن قاعدة الميزان مرتكزة على مستو أفقي.

٥) توصل المنقبون إلى أوراق بردية كتبت في عصور مختلفة تدل على بحوث طبية عميقة غير التي تقدم ذكرها وأهم هذه الأوراق ما يأتي:

أ- ورقة إبرس (Epiers) التي اكتشفت في طيبة سنة **١٨٧٣**م ويرجع تاريخها إلى سنة **١٥٠٠**ق.م وفيها وصف لأمراض العيون وأمراض النساء وحوت فصولا عن خواص العقاقير والنباتات.

ب- ورقة برلين التي اكتشفت بالقرب من سقارة وهي ذات ثلاثة أجزاء ينسب أقدمها إلى الأسرة الأولى وقد وردت بها تشخيصات الأمراض مختلفة وطرق معالجتها وفيها بيان لما يزيد عن **١٥٠** بطاقة طبية ووصف للأوعية الشريانية ودورة الدم.

ج- ورقة فلاندرس بترى التي اكتشفت في اللاهون (بالفيوم) سنة ١٨٩٣ ويعود تاريخها إلى سنة ٢٠٠٠ ق.م وموضوعها الطب البيطري.

وتدل هذه الوثائق وغيرها من المستندات على أن الطب نال قسطا وافرًا من عناية المصريين القدماء وأنهم درسوه دراسة منتظمة ومما يذكر لهم بالإعجاب أنهم ساعدوا على تعميم تعليمه في مختلف الجهات فأنشأوا له مدارس هليوبوليس ومنف وطيبة وصا الحجر - وكانت هذه المدارس أشبه بجامعات يتلقى فيها الطلبة فوق العلوم الطبية علوم اللاهوت والحساب والهندسية والفلك، كذلك أسسوا المستشفيات بجوار المعابد لمعالجة الفقراء من المرضى مجانا، وكان لكل مستشفى سجل تدون فيه كل حالة على حدتها وطرق معالجتها وتطورها ليكون مرجعًا لمثلها وسندا يتركه السلف للخلف.

وكان طالب الطب إذا أتم علومه واكتسب المران الكافي يؤذي اليمين القانونية في المعبد بين يدي أساتذته وجمهور من الحكام ويتضمن هذا اليمين خدمة الإنسانية بالصدق والرأفة على الفقير.

ومما ذكره عنهم سترابو Strapo (وهو عالم يوناني وُلِدَ سنة ٦٤ ق.م تقريبا ونبغ في علم الجغرافية ورحل إلى بلاد كثيرة وكتب عنها) أن الأطباء المصريين كانوا في العصور الماضية يسعون للحصول على المعرفة بوسائل مختلفة ولا يترفعون عن التقاطها من أفواه العوام والشيوخ فإذا ما عجزوا عن معالجة مريض عرضوه في الميادين أو الأسواق ومعه

حارس خاص يصف للمارة أعراض المرض فيدلون فيه بما يكون قد وقع تحت اختبارهم من الحالات المشابهة لحالة المريض والعلاج الذي نجح معها.

وفيما تقدم من الأدلة ما يكفي لإثبات أن قدماء المصريين اشتغلوا بالبحث العلى وتوصلوا به إلى نتائج علمية خطيرة وطبقوها في شتى مظاهر حياتهم. وكانت هذه الحقيقة معروفة عن المصريين من زمن قديم حتى أن فيثاغورس العالم الرياضي الشهير أراد أن يتزود من بحوثهم فقدم إلى مصر سنة ٥٥٠ ق.م ومكث مدة مع كهنة هليوبوليس يتلقى عنهم أسرار العلوم والمعرفة ومما يذكر على سبيل الفكاهة أنهم طردوه في أول الأمر لأنه لم يكن مختونا. وكان من عاداتهم إذ ذاك ختان الكهنة في دور الطفولة. فاضطر أن يجري عملية الختان وعند ذلك سمحوا له بالانضمام إليهم!!

أول بعثة علمية في التاريخ

ربما كانت حتشبسوت أشهر ملكات العصور القديمة. وقد امتد حكمها من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٤٧٩ ق.م، وكان خاليًا من الحروب فانصرفت إلى تشجيع الفنون والعلوم. ومما يؤثر عنها تلك البعثة التي جهزتها وأرسلتها لكشف بلاد بنت (Punt) وتبادل التجارة معها. ويقصد المصريون بهذا الاسم البلاد المطلة على الجزء الجنوبي من البحر الأحمر ويغلب على الظن أنها شواطئ السومال وما يقابلها من جزيرة العرب. وقد أعدت حتشبسوت لهذا الغرض خمس سفن كبيرة وزودتها

بمقادير كبيرة من الخرز الزجاجي والعقود والأسلحة والنبيذ وغير ذلك مما تميل إليه الشعوب المتبربرة. وأرسلت معها جماعة من العلماء والمصورين لدرس أحوال الحياة في هذه البلاد من مساكن ومصانع ومأكل ومشرب وحيوان وطير ونبات ومعادن .. وأمرتهم بعمل صور دقيقة لكل ذلك. وهذه هي أول بعثة علمية سمعنا عنها في التاريخ، وقد نجحت نجاحًا موفقًا إذ عادت السفن وهي مملوءة بخيرات هذه البلاد من ذهب وعاج وآبنوس وريش نعام وجلد نمر وأخشاب عطرة. واستحضرت معها رجالا ونساء من قبائل مختلفة وبعض أنواع الحيوان والطير والأشجار التي ليس لها مثيل في مصر، وقد اقتلعت الأشجار من جذورها وحملت بعناية إلى مصر حيث غرست لتنموا وتتكاثر، وقد سجلت حتشبسوت قصة هذه البعثة بالصور على جدران معبدها بالدير البحري.

الفصل الثاني

عناية الفراعنة بالعامل

الأهرام موضع فخر المصري واعتداده بآبائه، وهي بلا شك أشهر الآثار التي ورثتها الإنسانية عن المدنيات القديمة وأروعها وأضخمها. وهي بمثابة وثائق تاريخية تنم عن ثقافة فنية وعلمية. فالهرم الأكبر مثلا تحتوي على ٢,٣٠٠,٠٠٠ قطعة من الحجر الجيري زنة كل منها في المتوسط طنان ونصف طن. وطول قاعدته المربعة ٧٥٥ قدمًا ومساحتها نحو ثلاثة عشر فدانًا، ويبلغ ارتفاعه نحو ٤٨١ قدمًا.

وقد حددت زوايا أحجاره بدرجة تثير الإعجاب وصقلت سطوحها في كثير من المواضع حيث لا تقل في ملوستها عن عدسات الأبصار التي نضعها في وقتنا الحاضر ولهذا فإن طبقة الملاط التي تصل الحجر بأخيه لا تزيد عندها ١/١٠٠٠٠ من البوصة.

وأضلاع القاعدة تشير إلى الجهات الأربع الأصلية بالضبط ويكاد الهرم يكون واقعًا على درجة ٣٠ من خطوط العرض.

ويؤدى بابه إلى ممر يميل عن الأفق بزاوية تجعله موازيا لمحور دوران الأرض، ونسبة ارتفاع الهرم إلى محيط قاعدته تساوى بالتقريب نسبة نصف قطر الدائرة إلى محيطها.

ويشوب الأهرام شائبة تنقص من مكانتها، إذ يعتقد الكثير أن بنائها سخروا الأسرى في إقامتها وساموهم الذل والقسوة وساقوهم إلى العمل بالسياط.

وربما كان السبب في إثارة هذا الظن بالفراعنة ما ذكر المؤرخ الإغريق هيرودتس (Herodots) وغيره من الرومان الذين عاشوا في عصر متأخر كانت فيه جميع الأعمال التي تحتاج لمجهود جثماني شاق تقام في بلادهم على أكتاف الأسرى والأرقاء بقسوة لا مثيل لها. ولو أن هؤلاء المؤرخين درسوا أحوال مصر في عصر بناة الأهرام لما ألصقوا بهم هذه التهمة.

ففي هذا العهد لم يكن هناك جيش منظم إذ لم يكن في العالم إذ ذاك دولة قوية يخشاها الفراعنة. وفي مدة حكم الأسرة الرابعة جميعها لم تحدث من الحروب إلا مناوشات ضعيفة مع النوبيين في الجنوب والليبيين في الغرب. فمن أين أتي الفراعنة بهذا الجيش الجرار من الأسرى والأرقاء الذي بلغ عند خوفو مائة ألف واستخدمه في بناء هرمه.

والحقيقة التي يثبتها التاريخ أن الذي بنى الأهرام عمال مصريون لم تستخدم معهم القسوة بل عوملوا بالرأفة والشفقة وكان تجنيدهم لهذا العمل أمر ضروري يرمي إلى غرض اقتصادي جليل. لأن معظم السكان في هذا العهد كانوا يشتغلون بالزراعة وعدد قليل منهم يعمل في المناجم والمحاجر والصناعات التي كانت شائعة إذ ذاك.

ولم تكن الأعمال الزراعية مستمرة طوال العام لأنها كانت تتعطل أيام الفيضان الذي يغمر الأراضي الزراعية ويعطل العمل مدة تبلغ نحو أربعة أشهر. وفي هذه الفترة يكون الفلاح عاطلا لا يكسب قوت يومه وربما أصبح شريدا لا مأوى له إذا أصاب الفيضان كوخه وهدمه.

في مثل هذا الوقت كان الفراعنة يجمعون العمال من هؤلاء العاطلين ويستخدمونهم في بناء الأهرام. ومن الخطأ الشائع الاعتقاد بأن العمال كانوا يشتغلون بلا انقطاع فهذا أمر لا يتفق مع الحقيقة لأنهم كانوا يعودون إلى بلادهم عندما يصبح العمل ميسورًا في الأراضي الزراعية ثم يرجعون عند بدء الفضيان. وتفسر لنا هذه الحقيقة السبب في طول المدة التي كان يستغرقها بناء الهرم، فالهرم الأكبر مثلًا أقيم في عشرين سنة مع استخدام مائة ألف من العمال، ولا يصبح هذا الأمر إلا إذا كان العمل دوريًا على فترات. يضاف إلى هذا أن خوفو امتد حكمه ٢٣ سنة وليس في حيز المعقول أن مثل هذا الملك العظيم يكرس هذه السنين لعمل واحد بلا انقطاع مهملًا شئون دولته.

وأنه لمن دواعي الدهشة حقا أن يفكر ملك عاش منذ خمسة آلاف سنة في جمع العاطلين من شعبه واستخدامهم في عمل جليل مع توفير ما يلزمهم من مأكل ومشرب وملبس.

وليس هناك شك في أن العمال كانوا يعاملون باللين والشفقة لأن طبيعة المصري تأبى العنف ودينه يحرم عليه الظلم والقسوة وهو الدين الوحيد بين الأديان القديمة الذي بني على فكرة الخلود في الآخرة. ولا

يتحقق الخلود إذا ارتكب المرء ظلما في دنياه لأنه يحاسب على أعماله حسابًا عسيرًا أمام محكمة أوزيرس. ولقد تغلغلت هذه العقيدة في نفوس المصريين لدرجة جعلتهم يستعدون للحياة الثانية بكل ما أوتوا من جهد ومال. وهذه آثارهم تكاد تكون كلها مقابر أو معابد وليس فيها قصر أو بيت أو مصنع أو غير ذلك مما لا يتصل بالحياة الآخرة.

ونستطيع أن نعرف الصفات التي يلزم أن يتجمل بها المصري ليهيئ له الخلود من الصيغة التي يتلوها الميت أمام محكمة أوزيرس وهي تتلخص فيما يأتي:

"سلام عليك أيها الإله الأعظم. إني أتيت هنا متحليا بالفضيلة متخليا عن الرذيلة. لم أظلم ولم أحنث في يمين ولم أشته امرأة غيرى ولا ماله ولم أكذب ولم أسع في ضرر عبد ولم أسبب جوعًا أو ألمًا أو بكاء لأحد. ولم أجمع مالًا حرامًا ولم أطفف الكيل ولم اغتصب اللبن من فم الرضيع ولم أحمل عاملًا فوق طاقته ولم أكن نمامًا ولا كذابًا".

وظاهر من هذه الصيغة أن إرهاق العامل أمر لا يتفق مع الدن

وهناك أدلة تاريخية تثبت أن الفراعنة كانوا شديدي العطف على العمال نذكر منها ما يأتي:

١) يرى في قبر رخمارا الذي كان وزيرًا لتحوتمس الثالث وامنحتب الثاني رسم يمثل عمالًا مع نسائهم وأولادهم وهم يأخذون تحت مراقبته أكياسًا من القمح وزيتًا وملابس. فهذا الرجل العظيم

يحمل في قبره برهانا على حسن معاملته للعمال.

٢) كان امنحتب الثالث ملك بعض المناجم في شبه جزيرة سينا يستخرج منها النيروز والملاكيت. والأخير مجر أخضر ناصل مكون من كربونات وايدروكسيد النحاس. وكثيرا ما كان يرسل البعثات للبحث عن مناجم أخرى. وقد ترك رؤساء هذه البعثات نقوشًا كثيرة وعلى الأخص عند سربوط الخادم ووادي مجهرة وفيها يظهرون اغتباطهم بالعثور على مناجم جديدة ويذكرون بلهجة التأكيد أن صحة العمال كانت جيدة وأنهم عادوا جميعًا دون أن يصاب أحد منهم بسوء بالرغم من شدة الحر وندرة الماء.

٣) كان سيتي الأول ملقبا بالملك الطيب والراعي الطيب لما كان يظهره من عطف وشفقة على رعاياه. وقد أراد أن يستغل مناجم الذهب في جبل زبارا على بعد ٣٧ ميلًا شرق أدفو ولكنه لم يبدأ العمل قبل أن يتأكد بنفسه من توافر أسباب الراحة والطمأنينة للعمال فسار بنفسه إلى تلك الناحية واختار لرحلته أشد أوقات السنة حرًا. وقد وجد أنها خالية من الآبار فيبحث عن الماء فلم يجده وأخيرًا صلى لآمون بضراعة وخشوع وطلب منه أن يهديه إلى المكان الذي يجد فيه الماء. ومن محاسن الصدف أن أشار بعد ذلك إلى بقعة من الأرض فحفرها العمال فتفجر منها الماء غزيرا. فاغتبط سيتي لذلك وأقام فوق الماء

بنـاء متينـا وشـيد بجانبـه معبـدا وأوقـف علـى البئـر والمعبـد مـن الأملاك ما يكفي لصيانتهما وكفالة من يقوم بخدمتهما. ثم أنه بارك كل من يحافظ على البئر ولعن كل من يمسه بسوء. وهذه القصة منقوشة على جدران المعبد.

ويوجد بجبل السلسلة حيث كانت تقطع الأحجار للمباني نقوش كثيرة تدل على شفقة سيتي الأول وعطفه على العمال. منها أن أرسل ألف جندي لنقل بعض التماثيل للآلهة من السلسلة إلى طيبة ولم يشأ أن يسخرهم في هذا العمل بغير أجر إضافي فزاد راتب الجندي في اليوم إلى أربعة أرطال من الخبز وحزمتين من الخضر ومقدار من السمك واللحم ويضاف إلى هذا جلبابان من الكتان كل شهر. أما الضباط فكانوا يتمتعون يوميًا بالخبز الجيد واللحم والسمك والنبيذ وزيت الزيتون والعسل والتين والخضر.

ومما تقدم يتضح أن شفقة الفراعنة على العمال كانت طبيعية مغروسة في نفوسهم وأمرًا حقيقيًا لا مرية فيه فلا يصح بعد هذا اتهامهم بتسخير العمال بالعنف والقسوة في إقامة الآثار الضخمة وغيرها من الأعمال.

أمانة المثالين والرسامين المصريين

نري بين الأثار المصرية رسومًا وتماثيل لرجال ونساء على جانب كبير من جمال الصورة واعتدال القوام وتناسب القسمات والأمثلة الآتية دليل على ذلك وهي قليل من كثير.

١) تمثال منقرع وزوجته (وهو موجود بمتحف بوستن بأمريكا)

٢) تمثال تحتمس الثالث (ويرى بالمتحف المصري).

٣) تمثال الأميرة نفرت زوج رع حتب الكاهن الأكبر (وهو بالمتحف المصري)

٤) تمثال رأس نفرت زوج اخناتون وهو بمتحف برلين.

هذا عدا التماثيل الأخرى والصور التي لا حصر لها المنقوشة على جدران المقابر وتوابيت الموتى.

والناظر الى هذه الصور والتماثيل قد يساوره الشك في صدقها ويتوهم أن الفنان المصري قد بالغ فيما أودعه فيها من جمال. وهذا أمر لا يتفق مع الحقيقة لأن الفكرة الأساسية في إقامة التماثيل ورسم الصور راجعة إلى اعتقاد ديني راسخ يرمي إلى الخلود في الحياة الآخرة ويأمر بوضع هذه الصور والتماثيل في القبور بجانب جثث أصحابها لتسترشد بها الروح في التعرف على جسد صاحبها وتحل فيه. وكل تغيير في ملامح الشخص أو تعديل في جسمه من شأنه أن يضلل الروح فيحرم صاحبها من الخلود.

وقد ترك لنا الفنانون المصريون أدلة كثيرة على أمانتهم وصدق تعبيرهم ونكتفي بالإشارة إلى ثلاثة منها وهي:

١) كان أحد الفراعنة المعروفين باسم امنحتب مريضًا بداء الفيل (تورم القدمين) وتمثاله المحفوظ في المتحف المصري ظاهر فيه

هذا المرض بوضوح.

٢) يعتقد بعض المؤرخين أن توت عنخ آمون كان مريضًا بالسل والمتأمل في الصور التي وجدت في قبره بري لأول وهلة أنه ضعيف هزيل الجسم.

٣) كان اخناتون مريضا بالإسقاء في الجمجمة وكانت ممتدة قليلًا إلى الخلف ومن السهل ملاحظة هذا العيب في تماثيله أما في صوره فكان يستره بتاج ضخم غريب الشكل يمتد من خلف الرقبة إلى ما بعد الرأس بمسافة كبيرة وكانت زوجته نفرتت تلبس تاجًا شبيها به حتى لا يلاحظ في رسمها تباين في حجم الجمجمة.

التمثيل وقدماء المصريين

يعتقد الكثيرون أن التمثيل بدأ عند الإغريق وينسبون نشأته إلى الأعياد التي كان يقيمها الفلاحون في القرى أثناء الربيع تكريمًا للمعبود ديونيسس (Dionysus) إله الكرمة وخصب الأرض. إذ كانوا يجتمعون في منبسط من الأرض حول دائرة يتوسطها فريق منهم يرتدي جلد الماعز ويخفي وجهه بقناع ويتلو بعض الأناشيد والأغاني التي تذكرهم بأعمال آلهتهم في الخرافات المتداولة بينهم. وقد سمى الإغريق هذا التهريج تراجيديا (Tragedy) ومعناها "لعبة الماعز"، كما سموا الدائرة التي يقف حولها النظارة "اركسترا" (Orchestra) وما زالت هاتان الكلمتان شائعتين إلى يومنا هذا ولكن مدلولهما يختلف عن الأصل الذي وضع له.

وفي أثينا كانوا يقيمون الاحتفال بهذا العيد في مكان فسيح من الأرض بجانب معبد ديونيسيس. ولما وجدوا أن النظارة يزداد عددهم سنة بعد أخرى حتى وصل إلى عشرات الألوف حددوا دائرة الأوركسترا وأحاطوا نصفها بمقاعد تتدرج في ارتفاعها من الأرض وتسع نحو ١٧٠٠٠ شخص. وكان للمنشدين واللاعبين داخل الأوركسترا مرشد يقودهم ويوجههم ويؤدي بيديه وجسمه حركات متفقة مع معاني الأناشيد ثم زيد مرشد آخر وكانت الأغاني يتخللها حوار بين المرشدين يؤدي إلى تسلية الجمهور وبهذا أصبح المرشد ممثلا. وقد كتب سوفوكليز (Sophocles) ويوريبدز (Euripides) روايات صيغت حول مواضيع دينية لتمثل في هذه الأعياد وقد جعل الأخير عدد الممثلين في رواياته ثلاثة.

هذا موجز لنشأة التمثيل عند اليونان وهي لا تتعدى القرن السادس قبل الميلاد.

ولكن التمثيل كان معروفا بمصر في عهد الدول المتوسطة. حول القرن العشرين قبل الميلاد. وبدأ به كهنة أوزيرس بأبيدوس إذ رأوا أن معبودهم إله شعبي لا صلة له بالحكم وليس له نفوذ سياسي فلجأوا إلى الدعاية الكفيلة بحفظ منزلته في نفوس الشعب ولهذا الغرض كانوا يقيمون في كل عام مهرجانا فخمًا بأبيدوس يمثلون فيه قصة أوزيريس وأخيه ست وزوجته إيزيس وابنها هورس. وكان الشعب يشترك مع الكهنة في تمثيل بعض أجزاء القصة وينتهي المهرجان بمشهد رائع تحمل فيه

جثة أوزيرس وتدفن في قبر أعد لهذا الغرض. ومن هنا نشأ الاعتناء بين المصريين بأن أوزريس مدفون حقًا في هذه البقعة من الأرض فنالت درجة التقديس عندهم وأصبحوا يحجون إليها في كل عام ويدفنون فيها موتاهم من الملوك والأمراء وعامة الشعب.

مع هذه الحقيقة التي يثبتها التاريخ كان لزاما على العالم المتمدين أن ينصف قدماء المصريين وينسب لهم الفضل في نشأة التمثيل. وما هو جدير بالملاحظة إضافة لما تقدم أن التمثيل الإغريقي تطور من الأناشيد التي بنيت على الموسيقي وهذه بدأت في أول عهدها بالناي الذي نقله عن المصريين أهل كريت ثم أخذه عنهم الإغريق.

جهازان نادران

في متحف برلين جهاز علمي يحمل اسم تحتمس الثالث فعمره الآن قرب من ٣٤٠٠ سنة وهو أول آلة صنعت لمعرفة الوقت ويتركب من قطعة خشبية مستطيلة لها حافة مشطورة وهي محمولة من منتصفها على قائمة متصلة من نهايتها بساق طويلة عمودية على اتجاه الحافة وعليها أرقام تبين ساعات النهار.

وتتوقف طريقة استعمال هذا الجهاز على تكون الظلال واختلاف امتدادها بين شروق الشمس وغروبها. فكان المصري يضع هذا الجهاز عند شروق الشمس بحيث تتجه حافته نحو المشرق ويقع ظل الحافة على الساق فيكون الرقم الذي ينتهي عنده طرف الظل مبينا للوقت بالساعة.

وكلما ارتفعت الشمس في السماء قصر الظل بالتدريج حتى ينعدم عند الظهر. وإذ ذاك يدار الجهاز لتحتل الساق امتداد خطها على الجانب الآخر من الحافة فيمتد الظل عليها بالتدريج في أثناء انتقال الشمس إلى المغرب. وقد قسمت الساق إلى ست ساعات لبيان الوقت من مشرق الشمس إلى الظهر ثم من الظهر إلى الغروب.

وبعد أن استعمل المصريون هذا الجهاز نحو ألف سنة نقله عنهم الإغريق واستخدموه ومهم أخذ الأوروبيون فكرة تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة نصفها للنهار ونصفها لليل.

وفي متحف برلين يوجد أيضا جهاز مصري يعتبر أقدم آلة فلكية كشفت حتى الآن ويمكن استخدامها لرصد النجوم. وهي تتركب من جزأين أحدهما خيط طويل معلق في حامل وينتهي من أسفل بجسم ثقيل فهو خيط المطمار الذي يكون دائما في اتجاه رأسي. والجزء الثاني قضيب رقيق مستطيل ينتهي من أعلى بشق ممتد بمحاذاة طول القضيب.

ولاستعمال الجهاز للرصد يوضع القضيب بحيث يكون موازيًا لخيط المطمار ليكون في وضع رأسي ثم ينظر الراصد خلال الشق في اتجاه النجم القطبي حتى يراه على امتداد الخط الواصل بينه وبين الشق وبذلك يتعين خط الزوال في مكان الرصد. ويمكن بعد ذلك مراقبة النجوم التي تمر بهذا المستوى ووقت مرورها وغير ذلك من الظواهر الفلكية.

حجر رشيد

في صيف سنة **١٩١٣** زرت المتحف البريطاني بلندن وبدأت التجول في القسم المخصص لعاديات البابليين وقضيت به ساعة وبعض الساعة ثم حانت مني التفاية نحو الحجرة الجنوبية للقسم المصري فرأيت جمهورا من الزائرين ملتفين في وسط الحجرة حول شيء لم أتبينه فدفعني الفضول لألقي نظرة على هذا الأثر المصري الذي استرعي اهتمامهم فاتجهت نحوهم وإذا بي أرى صندوقا من الزجاج السميك بداخله حجر أسود وقد كتب عليه من الخارج "حجر رشيد". وكان القوم يتهامسون فيما بينهم متسائلين عن السبب الذي دعا لوضع هذا الأثر في مكان ظاهر لا يسع الزائر إلا رؤيته وخشيت إذ ذاك أن يتجهوا بنظرهم نحوي ويتبينوا جنسيتي المصرية ويهاجموني بأسئلتهم وما كنت أعرف عن حجر رشيد سوى اسمه وهذا نقص في الثقافة آلمني وأخجلني وحز في نفسي ودعاني إلى التقهقر بانتظام لخارج الحجرة. ومن هذا اليوم أدركت أن الانسان يجب أن يلم بتاريخ بلاده.

ولحجر رشيد أهمية عظمى في التاريخ إذ بواسطته تمكن العلماء من حل رموز الكتابة المصرية ومعرفة أبجديتها ثم الوصول إلى قراءتها وفهم معناها والتدرج من ذلك إلى درس النقوش التي خطها المصريون على آثارهم والكتابة التي أودعوها في أوراق البردي فأزيح الستار عن نواحي من التاريخ المصري لا حصر لها كانت إلى عهد قريب محاطة بستار كثيف من الغموض والإبهام.

وتتلخص قصة الكشف عن هذا الحجر فيما يأتي:

في أثناء احتلال نابليون مصر صدر الأمر لإحدى الفرق الفرنسية إنشاء حصن بجوار رشيد وكان في هذه الفرقة ضابط يسمى بوسار (Boussarrd) وإليه ينسب الفصل في العثور على هذا الحجر سنة ١٧٩٩م إذ وجده بالقرب من مصب النيل ملتي على الأرض. وتقول رواية أخرى إنه وجده بين أحجار جدار قديم، واهتم الضابط هذا الحجر لأنه أدرك أن النقوش الظاهرة على أحد جانبيه كتابة مصرية تنتهي من أسفل بكتابة إغريقية فأبلغ الأمر إلى القائد مينو (Menou) الذي أرسل في طلب الحجر واحتفظ به في منزله بالإسكندرية زهاء سنتين حتى على نابليون به فأمر أن ينقل إلى القاهرة ويوضع في المجمع العلمي الأهلي الذي أسسه بها.

ولما انتصر الإنجليز على نابليون وأخرجوه من مصر قضت المعاهدة التي عقدت بين الطرفين أن يتسلم الإنجليز الآثار المصرية الهامة التي جمعها الفرنسيون من مص ومنها حجر رشيد.

وفي أواخر سنة ١٨٠١ استولى على الحجر الجنرال ترنر (Turner) وأبحر به إلى انجلترا. وعرض أولا في الجمعية الأثرية بلندن وأهتم بدراسة النقوش المحفورة عليه طائفة من علماء اللغات الشرقية والإغريقية ثم صبت قوالب من هذه النقوش وأرسلت إلى الجامعات الشهيرة والجمعيات العلمية بأوروبا لتكون موضع بحثهم، ثم نقل الحجر أخيرًا إلى المتحف البريطاني وعرض على الجمهور.

والحجر من البازلت الأسود وهو غير منتظم الشكل لأن جوانبه متآكلة ويبلغ طوله نحو ١١٤ سنتيمترا وعرضه ٧٢ سنتيمترا وسمكه ٢٨ سنتيمترا ويتعذر معرفة أبعاده وشكله الحقيقي عندما كان سليمًا. والجزء الأعلى من النقوش المحفورة عليه مكتوب بالخط الهيروغليفي وهو أقدم الحروف المصرية وفيه تمثل الحروف والكلمات بصور للحيوان والطيور والجماد أو بأجزاء منها. والجزء المتوسط مكتوب بالخط الديموطيقي الذي تمكن اعتباره خطًا هيروغليفيًا مختزلا لدرجة كبيرة.

أما الجزء الأسفل فمكتوب باللغة اليونانية. ويحتوي النص الهيروغليفي على ١٤ سطرًا. والديموطيقي ٣٢ سطرًا، واليوناني ٥٤ سطراً، وبعض هذه السطور ليست كاملة بسبب ما أصاب الحجر من التلف.

ويطول بنا المقام إذا حاولنا وصف الجهود الجبارة التي بذلت في درس هذه النقوش أملا في الوصول إلى قراءة الخط المصري وفهم معناه. ولكنا نكتفي بذكر الخطوات الآتية مع مراعاة التبسط فيها.

١) ترجم النص اليوناني القس استيفن وستين "Stefhen Weston" وقرأه بالجمعية الأثرية بلندن سنة ١٨٠٢م.

٢) في النص الهيروغليفي خرطوش مكرر ست مرات ولما كانت ترجمه النص اليوناني تدل على أن النقش يتعلق بأحد البطالسة فقد فرض أن هذا الخرطوش تحوي بداخله حروف بطليموس.

٣) في سنة ١٨١٥ م عثر المستر بانكس "W.g Bankes" على مسلة في فيلة ونقلها إلى لندن وبفحصها اتضح أن بها نقشا باليوناني والهيروغليفي وبقراءة الأول ظهر أنه لملكين هما بطليموس وكليوباترة، فعرف أن الثاني حوى اسم هذين الملكين وكان كل منهما داخل خرطوش ولكن لم يمكن التحقق من أي الخرطوشين يحمل اسم بطليموس وأهما تحمل أسم كليوباترة. ولكن موازنتهما بالخرطوش المكرر في حجر رشيد سهل التحقق من ذلك. وبهذا أمكن معرفة رسم الحروف الأبجدية التي يتكون منها اسمي هذين الملكين.

٤) بذلت محاولات أخرى كثيرة لمعرفة باق الحروف الأبجدية اشترك فيها العلامة الإنجليزي توماس ينج (Thomas Yong) الشهير بنظريته في الضوء وكان لجهوده أثر محمود.

٥) خطا في الميدان العلامة الفرنسي جان فرنسوا شمبليون" Gean Francois Champollion" وكانت له معرفة باللغتين العربية والعبرية ويتقن القبطية وتمكن بجبروته وذكائه من تصحيح الأخطاء التي وقع فيها ينج وغيره. ووضع في سنة ١٨٢٢ م الأبجدية الهيروغليفية الصحيحة المعتمدة إلى يومنا هذا. وظل طول حياته يواصل البحث حتى استطاع أن تحل رموز أسماء الملوك المصريين جميعهم. وقد ساعدت معرفته باللغة القبطية على فهم معاني مفردات اللغة المصرية ثم وضع أجرومية لها. فإذا كان

علماء المصريات يجدون الآن أوراق البردي كتابًا مفتوحًا والنقوش التي على الآثار المصرية ميسورة الفهم فينما رجع الفضل الأعظم في هذا إلى جهود شمبليون.

أما محتويات حجر رشيد فهي صورة من القرار الذي أصدره مجمع الكهنة مصر المنعقد بمنف احتفالًا بالذكرى الأولى التتويج بطليموس الخامس أبيفان ملك مصر. ولقد توج هذا الملك الصغير في السنة الثامنة من حكمه فتكون الذكرى الأولى لتتويجه في السنة التاسعة من حكمه وهذا

يوافق سنة ١٩٦ ق.م ويتضمن القرار ألقاب الملك وأعماله الدالة على تعلقه بشعبه وهي تتلخص فيما يأتي:

(١) هبات من الأموال والغلال للمعابد وتخصيص أوقاف لها.

(٢) إلغاء نصف الضرائب وإعفاء الشعب من الديون التي عليه للحكومة.

(٣) تخفيض الأجور التي يدفعها الطلبة للكهنة.

(٤) العفو عن العصاة والترخيص لهم بالعودة إلى مصر.

(٥) إرسال الجنود برًا وبحرًا ضد أعداء مصر وحصار مدينة ليكوبوليس وفتحها (وهي أسيوط الحالية).

(٦) التنازل عن الديون المطلوبة من الكهنة.

(٧) ترميم المعابد والهياكل.

(٨) إطلاق سراح المسجونين الذين قضوا في السجن سنين طويلة.

واعترافًا من الكهنة بفضل الملك فقد قرروا أن تقام له تماثيل في المعابد لكي يقدمه الشعب وأن يحتفل في كل سنة بعيد ميلاده. وأن يكتب هذا القرار على الحجر الباسلت بالخط الهيروغليفي والديموطيقي واليوناني ويوضع بجوار تمثال الملك في جميع معابد الدرجات الأول والثانية والثالثة.

هذه هي قصة حجر رشيد الذي أثار اهتمام العالم المتمدن وكان له أثر فعال في كشف الستار عن تاريخ المصريين.

ونذكر بهذه المناسبة أن لليا بابين حجرا لا يقل في أهميته بالنسبة لتاريخهم عن حجر رشيد بالنسبة التاريخ مصر فقد أراد دارا الأكبر ملك الفرس أن تخلد اسمه في التاريخ بنقش يسجل فيه أعماله العظيمة وفتوحاته واختار له صخرة عالية يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم في مكان قريب من بيستن (Behistun) ويشرف على طريق القوافل.

ويحتوي هذا النقش على أربعة أقسام الأول منها رسم تمثل في الغالب شرذمة من الأسرى والثاني خط مكتوب باللغة الفارسية يصف انتصارات دارا على أعدائه وتمكنه من قمع الثورات التي قامت على أثر تتويجه. والثاني والثالث ترجمة للنص الفارسي باللغتين البابلية والسوسية، واللغة الأخيرة كانت شائعة في هذا الوقت.

وقد خاطر بحياته السير هنرى رولنسون (Sir Harry Raulinson) وتسلق هذه الصخرة في منتصف القرن الماضي تقريبا ونقل النقش بعناية تثير الإعجاب وقد كلمه هذا العمل جهدا شاقا وعملا متواصلا عنيفا.

وقد استطاع بعد ذلك أن يوازن بين النصين الفارسي والبابلي وأن يهتدي إلى حل رموز الكتابة البابلية وفهم معناها.

وإن العالم المتمدين لينحني إجلالا لأمثال شمبليون ورولنسون فهما من الأبطال الأفذاذ ويجب أن يسجل اسمهما في التاريخ.

الفصل الثالث
بطولة الفراعنة

في تاريخ الفراعنة أمثلة رائعة للشجاعة والجهاد والوطنية، والتضحية ولكنها مع الأسف مجهولة لأنها لم تذكر في الكتب المتداولة، ولأن أساتذة المعاهد المختلفة يضربون أمثلة لهذه الصفات بشخصيات أجنبية صيغت حولها وقائع أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة كريكاردوس البريطاني وهوراسيتو الروماني وعنترة العربي وغير هؤلاء. ومن هنا نشأت الفكرة الخاطئة أن تاريخ مصر يفتقر إلى الشخصيات التي تمثل البطولة. والحقيقة أنه يفيض بها ونحن نتجنى على آبائنا إذا تجاهلناها ولم نهتم بدراستها والإشادة بها.

وفي حروب المصريين مع الأسيويين مجال فسيح تظهر فيه بطولة الفراعنة وقوة شكيمتهم وحسن قيادتهم وصدق عزيمهم.

ففي القرن الخامس عشر قبل الميلاد اجتاح تحتمس الثالث (الملقب بنا بليون العصور القديمة) جزءا من آسيا وأنشأ امبراطورية مصرية وصلت حدودها إلى شرق الفرات وظلت تدين له بالطاعة حتى آخر حياته. ولما مات سنة ١٤٤٧ ق.م وتولى أبنه امنحتب الثاني ثار أمراء آسيا واستقلوا بالحكم وعز على امنحتب أن يفقد شرا من الأرض التي ورثها عن أبيه فعقد النية على أن يتولى بنفسه تأديب الثائرين.

وفي السنة الثانية من حكمه جهز جيشًا كبيرًا وسار على رأسه الى آسيا وتوغل فيها بسرعة منقطعة النظير رافعا الحصار عن الحصون التي أحاط بها الأعداء وفاتحا بلدة بعد أخرى. وكثيرا ما كان ينزل بنفسه إلى الميدان ويعرض نفسه للخطر لأنه كان يعتز بقوته الجسمانية وشجاعته الفائقة، ويلذ له أن يصارع أعداءه يدا بيد ويصرعهم. وحدث في إحدى الوقائع أنه أخذ بنفسه ثمانية عشر أسيرا واستولى على ستة عشر حصانا. وكان ظهوره بين الجند مثيرا لهمتهم وإقدامهم وتضحيتهم. ولم يمض شهر من الزمان حتى قضى امنحتب على الثورة وأسر سبعة من الملوك الثائرين ووطد أركان الامبراطورية ثم عاد إلى مصر ومر منف في طريقه إلى طيبة يتقدمه موكب النصر وقد سار فيه الملوك المأسورون وخمسمائة وخمسون من أمراء آسيا ونبلاها ومعهم عائلاتهم وخيولهم وعرباتهم. وعرضت فيه بعض الغنائم التي استولى عليها المصريون ومنها مائة ألف رطل من النحاس وأوان ذهبية بلغ وزنها ١٦٦٠ رطلا.

وكان أمنتحب الثاني ذا قوة جسمانية عظيمة وصفها في بعض النقوش التي تركها إذ يقول إنه لا يوجد من يقوى على أن يشد قوسه ورمى به وقد وجد هذا القوس بمقبرته.

وتولى بعد امنحتب الثاني ابنه تحتمس الرابع وفي عهده عاد الأسيويون إلى الثورة فسار إليهم بنفسه وقمع ثورتهم وأدب عصاتهم وعاد إلى مصر ومعه عدد كبير من الأسرى وكنز ثمين من أسلاب الحرب.

وجاء بعد تحتمس الرابع امنحتب الثالث فلم يفكر أمراء آسيا في الخروج عليه ولا شك أن خبرتهم السابقة جعلتهم يدركون أن الطاعة والخضوع خير لهم وأبقى.

وقد ارتفعت مكانة مصر وزادت هيبتها في نفوسهم لدرجة يستدل عليها من لهجة الرسائل التي كان يبعث بها أمراؤهم إلى فرعون فهذه بلغت منتهى الذل والاستكانة.

فأحدهم يصف نفسه بالأرض التي تطؤها قدم فرعون وآخر يفخر بأنه كاب فرعون والمقعد الذي يسند عليه حذاءه وثالث يقنع بأن يكون خادما لجوار فرعون.

وامتد حكم امنحتب الثالث ٣٦ سنة (١٤١١ – ١٣٧٥ ق.م) أمن فيها جانب الأسيويين ولهذا فإنه كان يقضي شطرًا كبيرًا من وقته في الرياضة والصيد والقنص ويوجد الآن بعض الجعارين التي أمر بصنعها وقد وصف فيها كيف تمكن في السنوات العشر الأولى من حكمه من أن يقتل بنفسه مائة أسد واثنين.

شجاعة رمسيس الثاني

وفي عهد رمسيس الثاني (١٢٩٢ – ١١٢٥ ق.م) استولى الحوثيون على حصن قادش وكونوا ميثاقًا مع أمراء آسيا لطرد المصريين من بلاده وجمعوا جيشا لهذا الغرض وجعلوا ميثالا (Metella) أمير الحيثيين قائدًا له.

وكان رمسيس من الشخصيات التي يضرب بها المثل في الشجاعة والإقدام وقوة الإرادة. فلما بلغه استعداد الأسيويين للحرب لم يتردد في الخروج لمحاربتهم وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة، وجمع جيشا قوامه خمسة وعشرين ألف رجل وسار إلى سوريا عن طريق بلدة ثارو(القنطرة) واجتاز الصحراء شهرًا كاملًا حتى أشرف على قادش وأصبح على مسيرة يوم منها. وكان جيشه منقسمها إلى أربع كتائب سميت بأسماء الآلهة أمون ورع وبتاح وسوتح. وكان هو يقود الأولى منها ويسير في مقدمتها.

وتفقد رمسيس جيش الأعداء فلم تجد له أثرا فأرسل جواسيسه الاستطلاع أخبار قادش فعادوا قائلين إن الظواهر تدل على أنها خالية من جيش مدافع وأحضروا معهم بدويين عثروا عليهما في الطريق فسأله رمسيس عن جيش الحثين فقالا إن ميثالا فر بجيشه إلى حلب. وكانت هذه خدعة دبرها ميثالا وجازت على رمسيس فأسرع إلى اجتياز دار الأورنتسي (Orantes) وتبعه كتيبة آمون وسار في أثرها الكتيبات الثلاث الأخر. ووصل رمسيس بسرعة خارقة إلى الجانب الغربي من المدينة ولحقت به كتيبته وأمر قوادها وجنودها بأن يضر بوا الخيام وأن يستريحوا فترة من الزمن قبل هجومهم على المدينة. وكانت إذ ذاك في موقع منيع يحيط به النهر وأحد روادفه من ثلاث جهات.

ولما اطمأن ميثالا إلى أن رمسيس أمن في خيامه تسلل بجيشه من الجانب الشرقي للمدينة محاذرًا ألا يراه المصريون ورأى أن كتيبة رع تجد في السير لتلحق رمسيس فأسرع في عبور النهر وأعترضها وهجم عليها

بغتة بقوة تزيد على أضعاف عددها فلم تستطع المقاومة وقتل منها عدد كبير وفر من بقي من جندها نحو رمسيس وكتيبة أمون مذعورين. وهنا أردك رمسيس المكيدة التي وقع فيها وعرف أنه أصبح مفصولا عن باقي جيشه. ولكنه لم يفزع ولم يفقد رباطة جأشه فأمر كتيبة أمون أن تستعد للمقاومة ولكن ميثالا لم تمكنها من ذلك إذ هجم عليها بجنده وعرباته التي بلغ عددها ٢٥٠٠ واستطاع أن يفرق شملها ويمزق صفوفها وأصبح رمسيس بغير جيش ولا يحيط به سوى شرذمة من حرسه الخاص وكانوا جميعا محاصرين بنطاق من عربات الأعداء، وأبي رمسيس أن يستسلم للهزيمة فركب عربته وانطلق بها كالسهم محاولا اختراق صفوف أعدائه والوصول إلى الكتيبتين الباقيتين من جيشه وحذا اتباعه حذوه وجدوا في أثره ولكنه لم يتمكن من تحقيق غرضه لأن النطاق الذي ضرب حوله كان كثيفًا فعاد أدراجه بعد أن قتل من أعدائه عددا كبيرة. ثم اتجه نحو الجهة الشرقية لأنه رآها أقل نفرا واستعدادا فقرر الهجوم عليها وكان في كل مرة يلقي بعدد من أعدائه في النهر. وعلى أثر إحدى هذه الهجمات سقط أمير حلب في الماء فاضطر أتباعه أن ينتشلوه منه وأن يعلقوه من قدميه ليسيل الماء من جوفه. وظل رمسيس ومن معه فترة من الزمن في الميدان بين هجوم وارتداد دون أن يتمكن أعداؤه من إصابته أو القبض عليه. ومن حسن حظه أن أعداءه اتجهوا بنظرهم نحو خيام المصريين فهر هم ما رأوا فيها من متاع وما وجدوا في سرادق رمسيس من نفائس وطرف فانصرفوا للسلب والنهب.

وفي هذه اللحظة وصلت فرقة مصرية آتية عن طريق البحر كان رمسيس قد وجهها في هذا الطريق قبل خروجه من مصر، وبينما كان الأعداء يتنازعون على جمع الغنائم إذ هجمت عليهم هـ ذه الفرقة وحصدت جموعهم حصدا ومزقتهم سر تمزق واضطر ميثالا أن يستدعي من المدينة ألف عربة كان قد أعدها لمثل هذا الموقف ولكن رمسيس تمكن من أن يجمع فلول كتيبتي أمون ورع ويضمهما إلى الفرقة القادمة من طريق البحر واستطاع بشجاعته وإقدامه وحسن بلائه أن يصمد لأعدائه.

وأخيرًا وصلت كتيبة فتاح إلى الميدان ورأى الأعداء أنهم أصبحوا محصورين من الجانبين بجيش رمسيس فاضطروا إلى الانسحاب والتجأوا إلى حصون المدينة بعد أن قتل منهم جمع كبير. وأصبح الميدان خاليا لرمسيس ولم يفكر ميثالا في إعادة الهجوم وآثر أن يقبع في المدينة محتميا بموقعها المنيع. وهكذا تمكن رمسيس ما أظهره من شجاعة وإقدام أن يجعل من الهزيمة نصرا ومن الخسارة ربحا وأن يعيد للجيش المصري هيبته بعد أن كادت تزول من نفوس الأسيويين.

وعاد رمسيس إلى مصر وهن يعتزم الانتقام لكرامته فجمع جيشًا جرارًا ورجع به إلى سوريا واستعرت الحرب بينه وبين الحوثيين خمس عشرة سنة متوالية هزمهم فيها وغليهم على أمرهم وكلا التجأوا إلى بلد وتحصنوا بها انتزعها منهم وأخرجهم منها مدحورين حتى دفعهم إلى حدود سوريا الشمالية.

ومات ميثالا في إحدى المواقع وتولى أخوه خيتازار (khetasar) بعده فرأى أن مقاومته للمصريين لا تجدي نفعا فسعى إلى الصلح وقبل رمسيس أن يعقد معه معاهدة وعاد إلى مصر بعد أن وطد أركان ملكه في آسيا.

ولم يجرؤ أحد من الحيثيين بعد ذلك على أن يخرج عن طاعة مصر وكانوا حريصين على استبقاء عطف رمسيس وصداقته حتى أنه بعد مضي ١٣ سنة على عقد المعاهدة قدم ملك الحية بين وأهدى ابنته إلى رمسيس لتكون زوجة له.

وكان رمسيس طول حياته خورا موقفه في قادش وما أظهره من شجاعة ورباطة جأش. وقد صورت هذه الحادثة في معبده بأي سمبل وفي أماكن أخرى كطيبة والأقصر والكرنك وأبيدوس. ويرى في الصور تفصيل الواقعة بدقائقها ويظهر رمسيس راكبًا عربته وهو يهجم على أعدائه في اتجاه النهر وقت شد مقود الفرس إلى وسطه وأطلق الحرية ليديه الاثنتين ليضرب هما الأعداء.

الفصل الرابع

مركز المرأة عند الفراعنة

إذا تصفحنا تاريخ الشعوب القديمة شرقية كانت أو غربية لم نجد فيه للمرأة أثرًا يذكر كأنها في نظرهم كم مهمل بمجرد عن الاعتبار. فالفرس والأسيويون والبابليون لم يسمحوا للمرأة أن تتولى الحكم فهم وآثارهم الباقية إلى الآن تكاد تكون خالية من تماثيل أو صور الملكة أو أميرة أو سيدة. أما الإغريق فقد وضعوا المرأة في المؤخرة واعتبروها مخلوقا خصص لخدمة المنزل فلم يسمحوا لها بارتياد مجتمعاتهم أو الاشتراك في حياتهم الفكرية خرموا عليها مشاهدة الألعاب الأولمبية مع أن هذت كانت مثابة أعياد شعبية تقام تكر ما للآلهة. ولهذا لم يظهر بين الإغريق من النساء سوى سافو (Sapho) التي اشتهرت بشعرها الغنائي.

وتحدثا تاريخ اليابان القدم أن المرأة بلغت عندهم حضيض الذل والاستكانة. ففي ليلة الزفاف كانت تلبس ثوب الحداد (وهو أبيض اللون عندهم) لأنها كانت تودع حياة الحرية وترتضى العبودية. فزوجها هو الإله المحلى الأسرة ومفروض على جميع أفرادها أن يقدموا له الصلاة في محراب صغير بالمنزل. وهو الحاكم بأمره يسخر زوجته فما يشاء وإذا سئم منها باعها. وإذا مات الزوج أصبح ابنه الأكبر إلهة الأسرة وورث حقوق أبيه في أمه فله أن يبيعها إذا أراد.

وقد تنزه قدماء المصريين عن أمثال هذه الدنايا لأنهم قدسوا المرأة واحترموها وصانوا حقوقها في كل ناحية من مظاهر الحياة والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يأتي:

١) المرأة في عداد الآلهة:

ليس أدل على تقديس المصريين للمرأة من أهم اتخذوا من الجنس اللطيف عددا كبيرا من الآلهة ونسبوا إليها أجمل ما يصورونه من الفضائل والمحاسن فن معبوداتهم مأعت إلهة العدالة والحق وحتحور آلهة الحب والفرح وسيشأت سيدة الكتابة وأمينة دور الكتب وإيزيس الأم السرمدية رمز الوفاء والإخلاص والعفو.

وللمعبودة الأخيرة قصة من أروع ما عرف في الأدب القديم وقد فاقت في عذوبتها أساطير الإغريق عن آلهتهم، وهي تتلخص في أن الإله ست قتل أخاه أوزيريس وأخفي جثته في صندوق وألقاه في النهر لحملته المياه إلى البحر وقذفت به الأمواج إلى مدينة ببلوس بسوريا. وهناك على الشاطئ نمت حوله شجرة كبيرة وضمته في ساقها. ورأى ملك ببلوس تلك الشجرة فأعجب بها واقتلعها من جذورها وهولا يعلم أن الصندوق في جوفها واتخذها عمودا يرفع سقف بيته عليه.

ولما علمت إيزيس بموت زوجها حزنت عليه وبكت بكاء مرًا وأخذت في البحث عن جثته متحملة مشاق السفر ووصلت أخيرة إلى مدينة بيلوس وأدركت أن جثة زوجها في الشجرة المقامة ببيت الملك فاعتزمت أن تبقى بقربها ودخلت في خدمة الملكة لتقوم بتربية أبنائها.

وعلـى مـر الأيـام أظهـرت إيـزيس حقيقـة أمرهـا للملكـة وطلبـت منهـا الصندوق فلم تبخل عليها به فانتزعته من الشجرة وحملته في سفينة إلى مصر وأخفته في مكان قريب من بلدة بوتو وذهبت لتزور ابنها هورس الـذي كـان طفـلا إذ ذاك ثـم عـادت إلـى الصـندوق فلـم تجـد بـه الجنـة وعلمـت أن سـت عثـر عليـه ومـزق الجنـة أربـع عشـرة قطعـة وبعثرهـا فـي جهات قاصية. فشرعت في البحث عنها وتمكنت بعد عناء طويل من العثور عليها وضمها إلى بعض واستطاعت بالتعاويذ التي تعرفها أن تعيد الحياة إلى زوجها، ولكنه لم يظهر في العالم الدنيوي واختار أن يكون إله الموتى، وتولت إيزيس تنشية ابنها هورس فلما كبر واشتد ساعده أراد أن ينتقم لأبيه فأقام حربا شعواء على ست وقدر له النصر فيها وساق ست مكبلا إلى أمه إيزيس فلم تمسه بسوء وعفت عنه وأطلقت سراحه.

وكان المصريون ينسبون فيضان النيل إلى الدموع التي تذرفها إيزيس حزنا على زوجها لأنها في اعتقادهم تصل إلى النيل وتمده بالخير والبركة والماء الغزير. وهتم المصريون إلى يومنا هذا ميعاد نزول النقطة المبشرة بالفيضان وتحددونه بيوم ١١ بؤونه وليست النقطة سوى دمعة إيزيس.

وقـد أعجـب الرومـان هـذه المعبـودة ومـا ينسـب إليهـا مـن فضائل وخصائص فعبدوها وشيدوا لها الهياكل حتى في روما نفسها.

ومـن صـفات الآلهـة التـي اتخـذها قـدماء المصـريين مـن الجـنس اللطيـف يتضـح أنهـم كـانوا يصـفون النسـاء بالعدالـة والحـق والحـب والإخـلاص للـزوج والعفـو عنـد المقـدرة وينسـبون إلـيهن ابتـداع الكتابـة

وحراسة دور الكتب وفيضان النيل. فكل ما هو جميل محبوب وكل ما هو نافع صالح نسبوه إلى النساء.

٢) المرأة في الآثار المصرية:

للمرأة نصيب كبير في التماثيل والرسوم التي تركها قدماء المصريين فقل أن نرى تمثالا لملك أو صورة له إلا وبجانبه زوجته ولم يكن اهتمامهم في ذلك قاصرة على الملكات بل تعداهن إلى الأميرات والكاهنات وغيرهن من عامة الشعب ونذكر على سبيل المثال ما يأتي:

أ- تمثال منقرع وزوجته (وقد سبقت الإشارة إليه).

ب- تمثال الملكة نفرت زوج أوزر تش الأول وهو بالمتحف المصري.

ج-تمثال سنيفرو وزوجته وابنتهما وكانت الزوجة مرضعة الملك سنائي من الأسرة الثامنة عشرة وكان زوجها أستاذًا للملك. ويرى في التمثال حاملًا قلبين في صورة إشارة إلى ما يمتاز به المربي من علم ودين. وهذا التمثال محفوظ بالمتحف المصري.

د- تمثال تحتمس الرابع وأمه طايا ورى بالمتحف المصري.

هـ- صورة لأخناتون وزوجته وأولاده وأصلها بمتحف برلين.

و- صورة لتوت عنخ أمون وأولاده وزوجته منقوشة على ظهر عرش هذا الملك الذي كشف عن قبره بالأقصر.

ز- تمثال لرأس الملكة نفرتت زوج أخناتون والأصل متحف برلين.

وكما عنى المصريون بتخليد المرأة في آثارهم فهم لم يغفلوا المحافظة على جثمانها إذ أهتموا بتحنيط جثتها. والمتجول في المتحف المصري يرى عددا كثيرة من موميات النساء داخل توابيت متينة دقيقة الصنع جميلة الزخرف. وقد لوحظ أن جثث النساء المحيطة يتطرق اليها الفساد قبل جثث الرجال ويرجع السبب في هذا إلى أنهم كانوا يحتفظون بجثة المرأة فترة من الزمن قبل أن يسلموها للمحنطين حتى يدب فيها التعفن ولا يفكر هؤلاء في انتهاك حرمتها.

٣) تولية الملك عن طريق المرأة:

كان من تقاليد المصريين ألا يتولى الملك إلا الان الذي يولد من زوجة شرعية وهذه يشترط فيها أن تكون متصلة بالنسب الفرعوني.

وإذا كان الابن من إحدى سراري الملكة جاز له تولى الملك إذا تزوج أختا له مولودة من زوجة شرعية لأنها في هذه الحالة تكسبه الحقوق الفرعونية. وإذا لم يوجد ابن للملك صح أن يتولى الملك أحد الأمراء بعد أن يتزوج بنتا شرعية، فتوت عنخ آمون مثلا لم يكن ابن أخناتون ولكنه اكتسب حقوق الملك بزواجه من نفرت بنت أخناتون ووريثته وأمنمحعت الثالث تزوج بأخته التي كانت من أم شرعية ليتمكن من الوصول إلى الحكم.

وقد يتزوج الابن الشرعي أخته الشرعية تقوية لدعائم الملك في نظر الشعب كما حدث عندما تزوج أحمس الأول أخته نفر تبرى.

فالمرأة في نظر المصري هي وريثة الدم الإلهي المنحدر من الملوك وهي أساس الملكية الفرعونية ولذا كان الترشيح للعرش يكتسب الرجل بوصفه ابنا الملكة لا ابنا لملك.

ولما كان للمرأة مثل هذه المنزلة السامية فلم يكن هناك حائل دون أن تتولى بنفسها الملك. وقد جلس على عرش مصر من النساء فيتوكريس في أواخر الأسرة السادسة. وسيبكنفر ورع وهي آخر من حكم من الأسرة الثانية عشرة. وحتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة.

٤) المرأة في الهيئة الاجتماعية:

كانت المرأة متمتعة عند قدماء المصريين حقوقها كاملة لأنهم ساووها بالرجل في كل اعتبار. فالزواج كان قائما على التراضي بين الطرفين وكان للمرأة أن تطلق زوجها إذا اشترطت عند الزواج أن تكون العصمة بيدها وقبل الزوج ذلك.

وكان تعدد الزوجات مباحًا إلا أنه كان نادرًا. وكان الطلاق مشروعًا إلا أنه كان مبغوضًا وتحول دونه مصاعب شتى.

وكان من شرائعهم تساوى الرجل والمرأة في الميراث، ولم يكن من قوانينهم إقامة وصى على القاصرين من الأبناء إذا كانت الأم تعهد بهذا العمل.

وقد أعطى المصري لزوجته الحرية التامة داخل بيته وخارجه فكانت تسير سافرة في المدن والحقول وتشترك في المجتمعات الخاصة والعامة

دون أن يتعرض لها أحد بسوء. وكان رمسيس الثالث يفخر حمايته للمرأة حيث قال "جعلت المرأة في عهدي تذهب حيث شاءت دون أن يتعرض لها أحد في الطريق".

ولم تحرم المرأة من تولى الوظائف الملائمة لها في عصور مختلفة أسندت إليها رئاسة الكهنة للمعبود آمون وغيره وهي من الوظائف التي كانت لها أثر ديني وسياسي خطير.

٥) المرأة في المواعظ والحكم المصرية

وجد بين الآثار المصرية بمجموعات من أوراق البردي مشتملة على مواعظ وحكم المشاهير الحكماء من قدماء المصريين ونخص منهم بالذكر ثلاثة هم:

أ- كاجمنى وزير الملك حولي من الأسرة الثالثة.

ب- بتاح حتب وزير الملك أسيسي من الأسرة الخامسة وقد كتب نصائحه بعد أن بلغ من العمر ١١٠ سنة.

ج- آني والمرجح أنه عاش في عصر توت عنخ آمون وقد وضع مواعظه لتلميذه خونسو حتب.

وقد ترجمت هذه المواعظ والحكم إلى اللغات الفرنسية والألمانية والانجليزية وبعضها إلى اللغة اللاتينية. ومما يؤسف له أنها ليست شائعة بيننا وقل أن يرد لها ذكر أو إشارة في كتبنا أو مجلاتنا.

وأهم ما ورد عن المرأة في هذه المواعظ يتلخص فما يأتي:

أ- إذا دخلت بيت غيرك فحاذر أن تفكر في خدر نسائه.

ب- بيت الزاني مصيره إلى الزوال وكل زان مكروه من الآلهة والناس لأنه خارج عن الشرائع والنواميس.

ج- دبر منزلك وأظهر الحب لزوجتك التي هي شريكتك في حياتك ولا تعاملها بغلظة إذ باللين تملك قلبها.

د- لا تتسرع مع زوجتك في الغضب لئلا تثير الشقاق والنزاع في بيتك

هـ- كثير من الناس يدفعون بيوتهم إلى الخراب لجهلهم حقوق المرأة

و- إذا وقعت عينك على جارتك فاحذر أن تمادى وتتعمد رؤيتها ثانيًا. وإياك أن تخبر أحدًا بذلك.

ز- الزم بيتك ولا تغادره إلا لموجب.

ح- إذا تزوجت فتاة ثم تركتها ارتكبت جريمة مقتها الآلهة والناس لأنك أحببتها وأحبتك وهي عذراء.

ط- احترم والدتك وأشملها بعنايتك لأنها كابدت كل مشقة حين حملتك وأرضعتك ولم تأنف من فضلاتك. وكانت تبر أساتذتك ليهتموا بتعليمك.

ولا شك أن وضع هذه الحكم عن المرأة دليل على عطف المصريين عليها واحتلالها في قلوبهم منزلة عالية من الحب والاحترام.

أسطورة عروس النيل

يسود الاعتقاد أن قدماء المصريين كانوا يضحون للنيل عند فيضانه كل عام بفتاة عذراء بعد أن يجملوها بأفخر الثياب وأثمن الحلى تقديسا له واعترافا منهم بفضله. وطبيعي أن يهتم المصريون بالنيل ويقيموا له الأفراح والأعياد إذ لولاه لما دبت الحياة في أرضهم ولكن تضحيتهم النفوس البشرية أمر لا يقبله العقل لأنهم كانوا أبعد الأمم عن هذه العادة المرذولة. ولقد سجل المصريون تاريخهم وشتى نواحي حياتهم في النقوش الظاهرة إلى الآن على آثارهم المنتشرة في طول البلاد وعرضها. وفي الكتابات التي أودعوها في أوراق البردي. وليس في هذه ولا تلك إشارة أو ذكر هذه الضحية البشرية التي التصقت بسمعتهم. حقا كان المصريون يقدمون لآلهتهم قرابين من الحيوان والطير والحب وغير ذلك. وكان الغزاة من الملوك يختصون أكبر الآلهة بنصيب وافر من أسلاب الحرب كآمون بطيبة وبتاح بمنف وإنم بهليوبوليس ولكن لم يحدث مرة أن ضحى لهذه الآلهة بنفس آدمية. ولم يكن النيل أكبر معبوداتهم فكيف اختصوه دونهم بأثمن ما في العالم وهو الحياة الانسانية.

وفي معابد دندره وأدفو نرى رسوم الاحتفالات بوفاء النيل وليس فيها ما يدل على أن عروسًا كانت تزف إليه

وأوراق البردي التي ورد فيها ذكر الفيضان خالية من أي إشارة لمثل هذه الضحية. ففي مجموعة أنسطاسي البردية مثلا جاء ما يأتي:

"أيها الفيضان المبارك. قدمنا لك الذبائح وأقمنا لك الأعياد وذبحنا لك الطيور والغزلان وأهدينا إليك العجول والثيران فتقبلها دليل شكرنا"

وفي مستند رسمي قديم من عهد رمسيس الثاني ورد ما يأتي:

"في الخامس عشر من شهر توت يرمي في النيل عجل أبيض وثلاث أوزات وهدايا ثمينة وكتاب جامع لوصف المهرجان قربانا لأمون ملك الآلهة ورب طيبة".

وظاهر من هاتين الوثيقتين أن القرابين التي كانت تقدم للنيل لم تتعد أنواع الهدايا المألوفة. ولو أنهم كانوا يضحون له بفتاة عذراء فما الذي منعهم من الإشارة إليها وقد ذكروا الأوز والعجول والثيران وهي أقل منها شأنا.

ويغلب على الظن أن منشأ أسطورة عروس النيل قصة خيالية رواها المؤرخ اليوناني بلوتارك ونقلها عنه الرومان والعرب وهي أن أحد الفراعنة قدم ابنته قربانا للنيل دفعا لغضب الآلهة ثم ألقى بنفسه فيه. وهي قصة لا تحتمل التصديق ولا يقبلها عقل سليم.

وذكر المقريزي في خططه أسطورة رواها عن عبد الرحمن عبد الله ابن عبد الحكم تتلخص في أن أقباط مصر طلبوا من عمرو بن العاص أن يسمح لهم بإلقاء فتاة في النيل إذا ما حل اليوم الثاني عشر من بؤونة لأنه لا يجرى إلا بهذه الضحية – فقال هذا لا يكون في الإسلام أبدا

فمكث أهل مصر أربعة أشهر لم تزد فيها النيل فكتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب بطاقة وأرسلها إليه ففتحها فإذا بها ما يأتي : - «بسم الله الرحمن الرحيم، من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر المبارك، أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله تعالى هو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك». فألقاها عمرو بن العاص في النيل فارتفع في تلك السنة ستة عشر ذراعًا في دفعة واحدة.

ولا شك أن ابن الحكم نقل هذه الرواية من مصادر غير موثوق بها وهي تصور خيالي بعيد عن الحقيقة.

أول محاكمة سرية في التاريخ

كان الفراعنة شديدي الحرص على سمعة زوجاتهم لكي تكون نقية طاهرة منزهة عن مواطن الشبهات. وكانت لهم في هذه الناحية مواقف أظهروا فيها من قبل الخلق وشرف العاطفة وضبط النفس ما نقف أمامه حيارى متسائلين كيف اتصفوا بهذه الفضائل ولم يبعث فيهم رسول ولم يهبط عليهم وحي من السماء ومن هذه المواقف حادثتان متشابهتان وقعتا في عهدين مختلفين.

وكانت الأولى أيام بين الأول وهومن ملوك الأسرة السادسة وامتد حكمه من سنة ٢٥٩٠ إلى سنة ٢٥٧٠ ق. م فقد أحس أن زوجته امتاس لم تصن خدرها فحزن وغضب ولكنه لم يدع العاطفة تتغلب على العقل فلم يستجوها بنفسه خشية أن يدفعه الغضب إلى ظلمها وطلب

إلى "إدنا" أحد الأمراء أن يقوم بتحقيق دقيق في الحادث وأمره أن يحافظ على سرية الإجراءات التي يتخذها وألا يذيع عنها شيئًا.

ومن الغريب أننا لا نعرف نتيجة هذا الحادث لما أحيط به من الكتمان حفظا لسمو الزوجة حتى أن النقوش التي وجدت في قبر إدنا لم تشر إليه إلا بجملة قصيرة تتلخص في أن الملك وضع ثقته فيه ليجري تحريًا سريًا في أمر يتعلق بشرف الملكة إمتاس.

وهذه أول محاكمة سرية يذكرها لنا التاريخ. وهي وحي لعاطفة شريفة ملأت نفس بيبي الأول. وإنا إذا وازنا بين موقف هذا الملك وما فعله هنري الثامن بزوجاته لأدركنا الفرق الشاسع بين الاثنين مع أن الأول عاش قبل الثاني بنحو ٤٠٠٠ سنة وفي عهد يوصف بالظلم والجهالة.

ووقعت الحادثة الثانية مع رمسيس الثالث (١١٩٨-١١٦٧ ق.م) إذ تآمرت الملكة طاي مع بعض موظفي القصر من رجال ونساء على قتله ووضع ابنها بنتاوير على العرش. وعلم رمسيس بالمؤامرة فلم يتسرع ولم يلجأ إلى العنف ولكنه أمر بتشكيل محكمة للتحقيق وعين القضاة بنفسه وترك لهم تقدير العقوبة على من ثبتت إدانته وحذره من أن يعاقبوا شخصا لم تظهر جريمته بالبرهان القاطع. ومات رمسيس قبل أن تتخذ الاجراءات للمحاكمة.

وأتى الميعاد المحدد للمحاكمة وبدئ في التحقيق فأتضح للقضاة في الجلسة الأولى أن ١٩ رجلا وست سيدات مدانون فوقعوا العقوبة عليهم ولا ندري نوعها ويرجح أنها الإعدام.

وفي الجلسة الثانية ثبت أن ستة رجال آخرين مدانون فقرر القضاة أن يتركوهم لأنفسهم في حرم المحكمة فانتحروا جميعًا.

وأخيرا حوكم الأمير ابن الملكة تحت اسم مستعار إخفاء لشخصيته وتحقق القضاة من اشتراكه في الجريمة فانتحر كزملائه السابقين.

ومن غريب الأمر أن سجلات هذه القضية لم تشر بكلمة واحدة إلى الرأس المدبرة للمؤامرة وهي الملكة طاى ولا تدري إذا كانت قد حوكمت أم لا. ومصير هذه الملكة محاط بستار كثيف من الكتمان.

ولم تخل هذه المأساة من ناحية فكاهية لأن الجلسة الأخيرة خصصت التحقيق مع عضوين موقوفين من القضاء وضابطين من المكلفين حراسة المتهمين لأنهم اتصلوا جميعا بنفر من المتآمرين قبل بدء المحاكمة واجتمعوا بهم في حفل تناولوا فيه الشراب.

وقد تحققت المحكمة من إدانتهم فأمرت ببتر آذانهم وأنوفهم ونفذ هذا الحكم فيهم وقد انتحر أحدهم.

تيتي شيري المثل الأعلى في التضحية

من أروع ما سطره التاريخ عن الجهاد والتضحية القصة التي نرويها هنا وهي تصور كفاح امرأة مصرية في سبيل استقلال وطنا ووصولها إلى هذا الغرض الأسمى بعد أن ذاقت مرارة الثكل في أعز أبنائها.

ففي أواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد غزا الهكسوس مصر واستولوا على مدن الوجه البحري وحصونه ثم انحدروا إلى الوجه القبلي واغتصبوا مدينتي منف وهرموبوليس (الأشمونين) وطاب لهم بعد ذلك الخلود إلى الراحة. وأقام فراعنة مصر في طيبة لا يجرؤون على مواجهة العدو بعد أن جردوا من جيوشهم والجانب الأكبر من ممتلكاتهم. وكان عرشهم مزعزعا لأن أمراء الأقاليم الجنوبية وقفوا بالمرصاد وكل منهم ينتهز الفرصة لاغتصاب العرش لنفسه.

وكان بلاط طيبة متناسبًا مع مركز فرعون المتواضع خاليًا من مظاهر القوة وعظمة الملك وجلاله.

إلى هذا البلاط حملت فتاة تسمي تيتي شيري لتكون زوجة لفرعون طيبة إذ ذاك وكان اسمه طاو. فقضت بضع سنوات في هدوء وسلام وضعت فيهما ولدا وبنتا. ولما كبرا زوجت الأخ باخته لتقوي مركزهما في وراثة الملك، ومات فرعون فأصبحت تيتي شيري أرملة ولم تتعد الثلاثين إلا بضع سنوات. وهنا بدأ جهادها ونشاطها وحسن تدبيرها إذ تمكنت من أن تتوج ابنها ملكا باسم سكنترع بالرغم من المقاومة العنيفة التي أبداها أمراء طيبة. وكان ابنها صغير السن ضعيف الخبرة إلا أنها كانت له الرأس المدبرة وصانت عرشه من المؤامرات الكثيرة التي كانت ترمي إلى اغتصابه منه.

وخشى الهكسوس من نفوذ هذه المرأة وبدأوا يتحرشون بالمصريين وأخذوا يستعدون لاكتساح البقية الباقية من أرض مصر. وهناك أسطورة

تقول بأن ملكهم أبوفيس أراد أن ينتحل عذرا للنزاع بينه وبين طيبة فأرسل رسولا إلى سكسنتر ع يقول له إن ضجيج تماسيحه في طيبة يعكر عليه صفو منامة في أفاريس (وهي بشرق الدلتا). ومهما يكن أصيب هذه الحادثة من الحقيقة فإن تيتي شيري أوعزت إلى ابنها أن تجمع جيشًا لمقاومة الهكسوس فاستمع لها وخرج في قوة صغيرة والتقى بهم ولكنه غالب على أمره وقطع جسمه أربًا. ومومياء هذا الملك التي وجدت بالدير البحري ونقلت إلى القاهرة يرى بها جروح خطيرة في الرأس.

وحزنت تيتي شيري حزنًا عميقًا على موت ابنها وأذرفت عليه دموعًا حارة ولكن اليأس لم يدب إلى قلبها فوضعت حفيدها كاموس بن سكنترع على العرش وكما كانت تدير شئون الملك للجيل الأول من ذريتها أصبحت تتولى هذا العمل للجيل الثاني. وقد فرضت على كاموس أن يثأر لبلاده وينتقم لأبيه فجمع شيوخ طيبة وأمرائها وحاول أن يقنعهم بالاشتراك معه في طرد الهكسوس من أرض الوطن قائلًا "إلى أي مصير نحن مساقون وهذا ملك من الرعاة رابض في الشمال وآخر من النوبيين قابع في الجنوب ونحن هنا بين المطرقة والسندان. ولكني سأكافح وأجاهد وأخرجهم من أرضنا المقدس وسأبدأ بالرعاة المتوحشين".

ولكن الشيوخ هزوا رؤوسهم قائلين إن الهكسوس قوم ذووا بأس وقوة ولا قبل لنا بمقاومتهم وطيبة بلدة حصينة عزيزة عليهم فلنعش فيها بأمان. فلم ييأس كاموس وعاود الكرة عليهم وذكرهم بمجد آبائهم موقظًا

فيهم روح الشجاعة ومذكيًا نار الحماسة فتأثروا بصدق وطنيته وهبوا جميعًا للدفاع عن أرضهم وجمعوا جيشا كبيرا ففرضت تيتي شيرى على حفيدها كاموس أن يتولى القيادة بنفسه ليكون قدوة لغيره في التضحية والوفاء للوطن.

واستعرت الحرب بين المصريين والهكسوس وتمكن كاموس من أن يدفع أعداءه إلى الشمال فاتحا بلدة بعد أخرى ولكنه خر صريعا في الميدان وهو في ميعة الصبا وعنفوان الشباب. ونستطيع أن ندرك مبلغ وقع هذه الكارثة في قلب تيتي شيري وهي لم تنس بعد ابنها سكنترع الذي ضحت به من قبل في سبيل وطنها.

ولكن الحزن لم يقعدها عن مواصلة الجهاد فوضعت حفيدها الثاني أحمس على العرش وزوجته بأخته نفر تيري ودفعته إلى القتال. وقد قدر لهذا الملك الشاب أن ينتصر على الهكسوس فطردهم من منف وتعقبهم حتى قلعة أفاريس وحاصرهم فيها ثم دك حصونها وأخرجهم منها أذلاء مدحورون وسار في أثرهم إلى آسيا وما زال يفتك بهم حتى مزقهم شر ممزق ولم تقم لهم من بعد قائمة.

وعاشت تيتي شيري أكثر من ستين سنة تمكنت فيها من أن توطد أركان العرش لذريتها رغم التيارات العنيفة التي كانت تتقاذفه. وأدركت أربعة عهود متتالية لزوجها وابنها وحفيدها كانت فيها جميعا السراج المنير والقوة الفعالة المحركة. وماتت بعد أن أدت رسالتها لوطنها ورأت بعينها مدينتها المتواضعة طيبة تصبح عاصمة الامبراطورية المصرية ويعود

إليها مجدها وسؤددها. وحدث بعد موتها ببضع سنوات أن أقام أحمس حفلة في قصره جمعت مظاهر الفرح والسرور ورأت الملكة أن زوجها حين مهموم فسألته عما به فقال إني أذكر وسط هذه المظاهر الخلابة جدتي العظيمة تيتي شيري التي عقدت لها الآلهة النصر. إن لها قبرًا ومعبدًا في طيبة ولكني سأشيد لها معبدًا آخر وهرمًا وأغرس حول قبرها الأشجار الباسقة وأحفر بالقرب منه بحيرة أمدها بالماء الغزير وأعين لهذه المنشئات ما يلزمها من خدم وعمال وكهنة وأقف عليهم من الأموال والأراضي ما يعولهم بسخاء ليؤدوا واجب الوطن نحو عزيزتي الراحلة التي لن أنساها ما حييت.

وهذا الصوت الذي اندفع من صدر أحمس يتردد صداه في قلب كل مصري فتيتي شيري من أكرم نساء مصر وأعلاهن منزلة في الوطنية والحماسة وهي المثل الأعلى في التضحية واسمها يجب أن يكون منقوشا على صدر كل مصري ومصرية.

الفصل الخامس
الفراعنة وقنال السويس

إذا نظرنا إلى مصور جغرافي للبحر الأحمر رأينا في جزئه الشمالي خليجين هما أشبه بذراعين متدين نحو البحر الأبيض بريدان معانقته واحتضانه. كان الطبيعة تتطلب أن يلتق هذان البحران وتجرى مياههما معا. وقد استجاب الفراعنة لنداء الطبيعة مدفوعين إلى ذلك بعامل اقتصادي هام. لأن مصر كانت على اتصال بجميع البلاد المعروفة في التاريخ القديم وكانت حاصلات الشرق الزراعية ومنتجاته الصناعية تصل إليها بالسفن عن طريق البحر الأحمر ثم تنقل من السويس إلى داخلية البلاد محمولة على الإبل. ورأى الفراعنة أن نقل التجارة بالإبل بين البحر الأحمر وبلاد مصر الغنية كمنف وطيبة أمر شاق ويستغرق وقتًا طويلًا ففكروا في شق قناة تصل البحر الأحمر بالنيل. وقد نجحوا في ذلك ويرجح المؤرخون أن أول من قام بهذا العمل هو سيزوستريس الثالث (١٨٨٧ – ١٨٤٩ ق.م) أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة. وكان للنيل في هذا الوقت سبعة أفرع تصب في البحر الأبيض أشهرها يسمى البلوزي يخرج من النيل بالقرب من موقع القاهرة الآن ويخترق شرق الدلتا مارًا بالقرب من مدينة تل بسطة ثم يصب في البحر الأبيض شرق بحيرة المنزلة.

وقد حضر سيزوستريس قناة تصل الفرع البلوزي بالبحر الأحمر مبتدئة من شمال تل بسطة ومنتهية بالبحيرات المرة فكانت السفن الآتية من الشرق تصل من البحر الأحمر إلى البحيرات المرة ومنها تخترق هذه القناة حتى تصل إلى البلوزي.

وهناك تجد طريقين مائيين أحدهما يحملها إلى البحر الأبيض والآخر يصل بها إلى منف أو طيبة. وهذا العمل تمكن الفراعنة من نحو ٣٨٠٠ سنة من أن يصلوا البحر الأحمر بالبحر الأبيض وإن كان هذا عن طريق غير مباشر.

وكانت هذه القناة معروفة باسم قناة الفراعنة وظلت تخدم التجارة زهاء ألف سنة اكتسب في أثنائها ثغر البلوز على البحر الأبيض شهرة عظيمة حتى أصبح من أهم ثغور العالم. وقد أدت الحالة الداخلية في البلاد إلى إهمال شأن القناة وعدم صيانتها وتطهيرها وانقطعت الملاحة فيها.

وفي سنة ٦١٢ ق.م شرع فرعون مصر نخاو الثاني في إصلاحها واستخدم هذا العمل ١٢٠,٠٠٠ من العمال ولكنه رجع عن عزمه تحت تأثير الكهنة الذين حذروه من أن يمهد بهذا العمل الطريق لغزو مصر. وكأنهم كانوا يتنبؤون إذ ذاك بالفتح الفارسي إذ لم يمض مائة عام حتى غزا قمبيز مصر.

وفي سنة ٥٢١ ق. م تمكن داريوس هستاسبوس عاهل الفرس من إصلاح القناة وإعدادها للملاحة وقد أقام أثر لهذا العمل تخليدًا لذكراه.

وفي عهد البطالسة كانت قناة الفراعنة موضع العناية والإصلاح الدائمين وقد عدلوا مجراها إذ جعلوا مصبها عند موقع مدينة السويس الآن.

وقد فكر بطليموس فيلادلفوس سنة ٢٨٦ ق.م في أن يصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض مباشرة بقناة تحفرها بينهما لأنه أدرك أن هذا المشروع يزيد في ثروة مصر ورخائها. ولكنه لم يقدم على تنفيذه لأنه تأثر إذ ذاك بالنظرية الخاطئة التي كانت سائدة في هذا الوقت وهي أن مستوى البحر الأحمر يعلوا كثيرًا عن مستوى البحر الأبيض فإذا شقت قناة بينهما طغت مياه البحر الأحمر على البلاد وأغرقتها.

وتعهد الرومان قناة الفراعنة بالإصلاح فوسعوا مجراها وزودوها بالماء الغزير ولكنهم أهملوها في أوائل القرن الثالث للميلاد فساء حالها وانقطعت الملاحة فيها.

ولما فتح العرب مصر أعاد عمرو بن العاص حفر القناة وسماها قناة أمير المؤمنين واستخدمها في حمل خيرات مصر لأهل الحرمين.

وقد ظلت هذه القناة تؤدي خدماتها للتجارة إلى أواخر القرن الثامن الميلادي حيث أمر بردمها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ويقال إن السبب في ذلك أن الغلويين في المدينة ثاروا عليه فأراد أن يضرب عليهم حصارًا ويحرمهم من خيرات مصر. وكان هذا هو آخر العهد بقناة الفراعنة.

حتشبسوت مثال الدهاء والدعاية الناجحة

أول من اشتهر في التاريخ من النساء حتشبسوت بنت تحتمس الأول أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

تطلعت إلى الملك وهي طفلة وسعت إلى تحقيق هذا الغرض بكل ما أوتيت من قوة وحيلة وإقدام. ساعدها على ذلك جمال فتان وجاذبية سحرية تأسر القلوب. ومن الذي يستطيع أن يقم في سبيل امرأة وهبتها القدرة الإلهية كل هذه الصفات؟

وكانت أول دعاية لها في هذا السبيل أنها ابتدعت قصة خيالية عن نفسها وأذاعتها بين الناس بمختلف الطرق. فقالت إن الإله آمون رع هو الذي أنجبها وأنها ابنته حقا. ولم يشك الجمهور في صحة هذه الرواية لأن المصريين كانوا يعتقدون أن ملوكهم يولدون من أم بشرية وأب سماوي.

وقصة ولادتها كما صورتها في الدير البحري تتلخص فيما يأتي:

"أراد كبير الآلهة آمون أن ينجب طفلة تحكم مصر فجمع الآلهة وأنبأهم برغبته، فأشار عليه توت ملك الحكمة أن يصطفى لأم المولودة الملكة أحمس زوجة تحتمس الأول فسار الالهة جميعًا نحو القصر وكانت الملكة نائمة في خدرها فاستيقظت ورأت آمون فامتلأ قلبها غبطة وسرورا. وأقبل آمون فوضع رمز الحياة في يدها ثم قربه من أنفها لتتنفس ريح الأبدية وأمر المعبود خنم أن يخلق المولودة خلقًا حسنًا فجلس على

دولابه وصنع جسمي الطفلة وقرينتها من الطين. وجاءت هبت إلهة الولادة فنفثت فيها الروح. وأقبلت المعبودة حتحور فرفعت الطفلة بين يديها وقدمتها لآمون فاستقبلها فرحًا مسرورًا وأعلن في حضرة الآلهة أنه اختارها ملكة على مصر.

ووصلت حتشبسوت إلى سن الشباب فاكتسبت جمال الآلهة وقوامهم وجاذبيتهم. واقتضت مشيئة آمون أن يتوجها ملكة على مصر فحملتها الآلهة إلى هليوبوليس وهناك وضع آمون على رأسها التاجين الأبيض والأحمر في حفل رائع.

بعد أن شاعت هذه الأسطورة خطت حتشبسوت خطوة أخرى جريئة إذ طلبت من أبيها أن يتزوجها فرضخ لما أوحت به ثم أقنعته بأن أخاها (تحتمس الثاني) معتل الصحة ضعيف الإرادة لا يقوى على تحمل أعباء الحكم، وأوعزت إليه أن يختارها وريثة له في العرش، فلم يتردد في تحقيق رغبتها، وجمع الأمراء والأشراف والقواد وقال لهم "هذه هي ابنتي حتشبسوت التي اصطفاها آمون رع. هي وريثتي وستتولى الحكم بعدي فامتثلوا لأمرها واعلموا أن من أطاعها عاش سعيدا ومن خرج عليها هلك".

وماتت بعد ذلك أم حتشبسوت وكانت من سلالة الفراعنة الذين طردوا الهكسوس من مصر فأصبح مركز تحتمس الأول مزعزعًا لأنه لم يكتسب الملك إلا بفضل زواجها منه. وانتهزت حتشبسوت هذه الفرصة فاغتصبت العرش من أبيها (سنة ١٥٠١ ق. م تقريبًا) ولم يكن من

السهل عليه زوال ملكه فانضم إلى ابنه تحتمس الثاني وتمكنا في أول الأمر من التغلب عليها ولكنها انتصرت عليهما أخيرًا بفضل تعضيد الكهنة والهيئات التي كانت تحرص على تقاليد الوراثة الملكية، ومات بعد ذلك تحتمس الأول ثم ابنه تحتمس الثاني فاستقر لها الملك.

ورأت حتشبسوت في أخيها تحتمس الثالث منافسًا قويًا فتزوجت به وأشركته معها في الحكم، ولكن السلطة والنفوذ كانا بيدها. وتحتمس الثالث هذا هو أشهر قواد التاريخ القديم ومنشئ أول أسطول حربي في العالم ومؤسس الإمبراطورية المصرية بآسيا. هذا البطل الفذ لم يكن شيئًا مذكورًا في عهد حتشبسوت إذ لم تظهر عظمته إلا بعد أن ماتت في سن الستين وانفرد هو بالسلطة سنة **١٤٧٩** ق.م

وظلت حتشبسوت في الحكم نحو عشرين سنة ساد فيها الأمن في البلاد وزال شبح، الحرب ولهذا امتلأت خزانة الدولة بالكنوز والاموال التي ساعدت تحتمس الثالث فيما بعد على فتوحاته بأسيا.

ومن أعمال حتشبسوت تلك البعثة التي أرسلتها البلاد نبت. ومعبدها في الدير البحري وقد صورت على جدرانه قصة هذه البعثة وأسطورة ولادتها وتتويجها.

وأقامت أربع مسلات بالكرنك لم يبق منها الآن سوى واحدة قائمة على قاعدتها ويبلغ طولها مائة قدم وهي مصنوعة من قطعة واحدة من الجرانيت.

وهنا يتساءل مهندسو القرن العشرين بما لديهم من وسائل النقل والحمل والحفر والنسف كيف تمكنت حتشبسوت من فصل هذه القطعة من الصخر ثم نقلها وصقلها وإقامتها وليس هناك جواب على هذا السؤال فهو سر لا يعلمه إلا الفراعنة.

اللقب الفرعوني

كان اللقب الكامل الذي تحمله فرعون مصر عقب توليته مشتملًا على خمسة أسماء كما يأتي:

١) **اسم الصقر حر (أوهورس)** وهو صورة لإله الشمس رِع وقد عبدهما المصريون من القدم. ووجوده في اللقب رمز إلى أن فرعون مثله على الأرض.

٢) **اسم السيد تين (نبي)** وهما معبودتا الوجهين القبلي والبحري لما كان منفصلين. وإحداهما الرخمة نخبت سيدة الوجه القبلي والأخرى هي الحية باتو سيدة الوجه البحري. ويغلب على الظن أن مينا هو أول من اتخذ اسم السيدتين في اللقب الفرعوني إشارة إلى انضمام القطرين تحت حكمه.

٣) **اسم الصقر الذهبي (حرنبو)**، والصورة التي ترمز لهذا الاسم تمثل صقرًا رابضًا فوق عقد من الخرز. ولهذا العقد قراءتان في الكتابة الهيروغليفية إحداهما (نيت) والثانية (نبو) والأولى تدل على بلدة أمبص مركز عبادة الإله ست (وهي قريبة من قوص

وليست كوم أمبو) والثانية تدل على الذهب. وقد قرأها الإغريق بالطريقة الأولى وقالوا إن رسم الصقر فوق هذه المدينة إشارة إلى الحادثة التي انتصر فيها هورس على ست ويعتقد بعض العلماء إلى الآن بصحة هذا التفسير. ولكن هناك دلائل أخرى تشير إلى أن القراءة الثانية أقرب إلى الحقيقة. منها أن تحتمس الثالث وصف نفسه في لقبه الكامل بأن أمون صاغه على شكل صقر من ذهب. وعبرت حتشبسوت عن نفسها بالأنثى هورس الذهبية. والنظرية السائدة الآن هي أنه لا علاقة لهذا الاسم مدينة أمبص بل إنه رمز إلى أن فرعون الذي يمثل هورس على الأرض قد صنع جثمانه من الذهب.

٤) اللقب الأول ويكون دائما مسبوقا بكلمة ملك الوجهين القبلي والبحري. ويوجد هذا اللقب داخل خرطوش. والخرطوش كلمة فرنسية (Cartouche) يرادفها في المصرية كلمة "شنو" المشتقة من فعل "شنى" بمعنى أحاط. وهي تمثل حلقة من حبل مزدوج ينتهي طرفاه بعقدة على شكل مستقيم. وهذا الرسم يدل على أن فرعون يسود على كل ما تحيط به الشمس.

٥) اللقب الثاني ويوجد أيضًا داخل خرطوش ويكون مسبوقًا دائمًا بكلمة "ابن رع"، وهذا هو الاسم الذي كان يحمله فرعون قبل تتويجه ويكون في الغالب من أسماء أسرته. ففي الأسرة الثانية عشرة مثلا كان اللقب الثاني لفرعون إما امنمحات أو ستوزرت.

وفي الأسرة الثالثة عشرة سبك حتب وفي الأسرة الثامنة عشرة امنحتب أو تحتمس (جحوتي مس).

وفي الغالب يكون اللقب الأول هو الاسم الرسمي لفرعون إذ كثيرًا ما يوجد منقوشًا وحده على الآثار. ولكن هناك حالات تشذ عن ذلك.

وفي اللقب الكامل تكون جميع هذه الأسماء المتقدمة متبوعة بصفات يختارها فرعون لنفسه، وفيما يأتي مثالان لذلك.

١) لقب سنوزرت الأول من الأسرة الثانية عشرة

حر (هورس) حياة المولودات. السيدتان حياة المولودات، حر الذهبي حياة المولودات. ملك الوجهين القبلي والبحري. خبر كا رع. ابن رع سنوزرت. منح الحياة والبقاء والثروة مثل رع إلى الأبد.

٢) لقب تحتمس الثالث من الأسرة الثالثة عشرة كما وجد منقوشًا في سينا

حر الفحل القوى الظاهر بجلاله في وأست (طيبة).

السيدتان الخالدتان في ملكوتهما مثل رع في السماء. حر الذهبي القوى في بسالته والمقدس في جلاله. ملك الوجهين القبلي والبحري "من خبر رع" ابن رع .. "تحتمس نفر خبر" المحبوب من حتحور سيدة الفيروز.

الفصل السادس

الأسماء المصرية

كانت اللغة المصرية القديمة التي امتد استعمالها آلاف السنين عرضة لتطورات كثيرة أدت إلى تغيير معالمها. ونشأت هذه التطورات من عوامل شتى نذكر منها ما يأتي:

١) كانت مصر في الأزمنة الغابرة على اتصال دقيق بجميع البلاد المعروفة في التاريخ القديم كالشرق الأقصى والهند وفارس وبابل والغرب والسودان والسومال والنوبة وشمال أفريقيا ثم أثينا وروما. ويرجع السبب في ذلك إلى أن مصر بفضل موقعها الجغرافي كانت مركزًا لتبادل التجارة بين الشرق والغرب. ولا شك أن اختلاط المصريين بشعوب مختلفة اللهجات من شأنه أن يُؤثر في لغتهم.

٢) غزو المصريين للبلاد المتاخمة لهم وامتزاجهم بأهلها.

٣) نزوح بني إسرائيل إلى مصر واختلاطهم بأهلها وتكاثرهم فيها وإقامتهم بها نحو أربعة قرون.

٤) احتلال الشعوب الأجنبية لمصر وبقاء البلاد تحت حكمهم قرونا عديدة فقد ظل الهكسوس مصر نحو ١٠٠٠ سنة (على

الأرجح) والفرس ضعف هذه المدة والإغريق والبطالسة ٣٠٠ سنة والرومان والبيزنطيين ٦٠٠ سنة.

٥) أراد البطالسة أن يقضوا على اللغة المصرية قضاءً تامًا ويحلوا اللغة الإغريقية مكانها فبدأوا بتأسيس مكتبة الاسكندرية ومتحفها وجامعتها وحرصوا على أن تلقي المحاضرات على الطلبة باللغة الإغريقية. ثم أنهم جعلوا الوظائف الرئيسية في الدولة وقفًا على الإغريق دون غيرهم.

ومن هذا العهد ابتدأت اللغة المصرية في الاضمحلال وفترت العناية أيضًا بالكتابة الهيروغليفية وشقيقتها الهيراطيقية والديموطيقية حتى إذا ما أقبل القرن الثالث للميلاد وانتشرت المسيحية بمصر وأراد الأقباط أن يترجموا الكتب الدينية إلى اللغة المصرية لم يجدوا مفراً من كتابتها بالحروف الإغريقية. أما مانيتو (وهو راهب مصري ولد في سمنود وعاش أيام بطليموس الأول) فقد كتب تاريخه الشهير عن مصر باللغة الإغريقية.

كانت اللغة التي يتكلمها المصريون في أوائل العهد بالمسيحية تسمى باللغة القبطية وهي آخر مظهر وصلت إليه اللغة المصرية بعد تطوراتها المختلفة، والصلة بين اللغتين ضعيفة لدرجة تجعلهما متباينتين.

ولما فتح العرب مصر وانتشر الإسلام بين أهلها أخذت اللغة القبطية تختفي على التدرج ولم يأت القرن السادس عشر حتى بطل استخدامها كأداة ولكنها مازالت مستعملة إلى الآن في الكنائس إذ تقرأ

بها بعض الطقوس الدينية وهم يكتبونها الأبجدية الإغريقية بعد أن أضافوا إليها الحروف التي تنقصها من الأبجدية المصرية.

وكان طبيعيًا بإزاء هذا التطور الخطير في اللغة أن أصاب التحريف أسماء ملوك مصر وملكاتها ومدنها ومعبوداتها وغير ذلك. فالصيغة المتداولة عنها هي الصيغة الإغريقية بعد نقلها إلى العربية. وقد يكون هناك تبان كبير بينها وبين الأصل المصري بذهب بالمعنى المقصود منه لأن الأسماء المصرية كانت في الغالب تحمل معنى جميلا. ويستدل على ذلك من الأمثلة الآتية:

١) رمسيس أصلها بالعربية رع مس ومعناها ابن رع

٢) سيزوستريس أصلها سنوزرت ومعناها رجل المعبودة أوزرت (آلهة القوة)

٣) أمنوفيس أصلها أمنحتب ومعناها آمون مسرور

٤) امنميسس أصلها امنمحات (لا أمنمحعت) ومعناها آمون في المقدمة.

٥) احمس أو أمزيسس أصلها يعحمس ومعناها ابن القمر.

٦) طيبة أصلها وأست ومعنى وأس الصولجان والتاء للتأنيث. ولا ندري ما العلاقة بين طيبة ووأست إلا إذا أراد الإغريق اسم بلدة إغريقية وهي (The bes) على أعظم مدينة أثرية في العالم.

٧) هليوبوليس أصلها إونو ومعنى إون عمود والواو الأخيرة للجمع

وسميت بهذا الاسم لأنها كانت مركزا لعبادة الإله إتم وهي صورة من إله الشمس رع وكانوا يمثلونه بعمود وهو الشكل الذي تطورت منه المسلة، أما كلمة هليوبوليس معناها الإغريقية مدينة الشمس.

٨) فرعون أصلها برعاء ومعناها البيت العالي.

٩) أوزبرس أصلها وزير.

١٠) ممفيس أو منف أصلها من نفر ومعناها الجميلة على الدوام.

١١) أثيوبيا أصلها كأسن وهي المعبر عنها في التوراة بكوسن.

١٢) توت أصلها جحوتي وهو إله العلم والحكمة.

١٣) أخناتون أصلها أخن إتن ومعناها روح إتن وهو إله قرص الشمس.

وقد اتبعنا في الفصول المتقدمة ذكر الأسماء بصيغتها الإغريقية لأن العرف جرى بها ولأن الأمر قد يلتبس على القارئ إذا ذكر ما يخالفها. ولكن الأجدر بالمصريين أن يستعملوا الأسماء المصرية ويهجروا مرادفاتها الإغريقية الدخيلة عليهم والتي تذكرهم بعهد الإغريق والبطالسة الذي ذاقوا فيه أنواع الظل والاستعباد. وقد يعترض على ذلك بالفكرة القائلة إنه لا سبيل إلى معرفة النطق الصحيح للأسماء المصرية لأن المصريين لم يستعملوا في أبجديتهم سوى الحروف الساكنة وأهملوا الحروف المتحركة فكلمة «نفر، ومعناها وجميل، يمكن أن تنطق بأشكال مختلفة حسب الشكل الذي يوضع على كل من حروفها الثلاثة أو

حروفها المتحركة التي تلحق بها ولا ندري أيها يكون مطابقا للنطق المصري. ولكن مثل هـ ذا الخطأ لا يغير جوهر الكلمة ويصح التسامح فيه وهو خير من أن نستعير لغة أجنبية نطق ها أسماء آبائنا وأجدادنا.

أخناتون أول داع إلى الوحدانية

بلغت الإمبراطورية المصرية أيام أمنحتب الثالث أوج عزها وسطوتها إذ ساد الأمن في ربوعها وتدفقت الأموال والكنوز من النوبة والولايات الأسيوية على طيبة عاصمة الإمبراطورية. وعاش فرعون وحاشيته في بذخ وترف يقضي أيامه في الصيد والقنص وإقامة المباني والتماثيل الضخمة.

ولما مات سنة ١٣٧٥ ق.م تولى العرش ابنه باسم أمنحتب الرابع. ولم يفكر أحد في أنه سيخرج على التقاليد الدينية التي حافظ عليها آباؤه وأجداده ويبشر بدين جديد يكتسح العقائد التي دان لها المصريون آلاف السنين. ولكنه اتخذ لنفسه إلها مثلا بقرص الشمس وسماه "إتن"، ولم تكن هذه الكلمة غريبة على المصريين لأنها في لغتهم تدل على قرص الشمس نفسه. وقد شيد المعابد لهذا الإله في طيبة ومنف وغيرهما من البلاد وأعلن أنه رئيس كهنة هذا الإله العظيم. وكان طبيعيا أن يثور الكهنة على هذا المعبود الجديد.

وعلى الأخص كهنة آمون بطيبة لأن إلههم كان المعبود الرسمي لمصر من عهد أن اتخذت طيبة عاصمة البلاد، وإليه كانت تحمل الهدايا وغنائم الحرب، وتقدم القرابين وعليه كانت توقف الضياع والأموال. وكان رئيس كهنته بمثابة وزير لفرعون.

ولما رأى أمنحتب الرابع أن الكهنة يقاومون عبادة إتن لم يرض لنفسه بالهزيمة وخطا خطوة جريئة هزت البلاد هزًا عنيفًا. ففي السنة السادسة من حكمه جعل عبادة اتن الدين الرسمي للبلاد وأعلن أن هذا المعبود هو الإله الفرد الصمد الذي لا يعبد سواه. وأمر بنشر عبادته في النوبة والبلاد الأسيوية الخاضعة لمصر، وأغلق معابد الآلهة الآخرين، وحطم تماثيلها ومحى صورها وأسماءها من المباني والآثار التي شيدها السلام من الفراعنة. وقد اشتد سخطه على المعبود آمون فلم يسمح بذكر اسمه في أي مكان واضطر كل فرد يوجد في تركيب اسمه لفظ آمون أن يتخذ له اسمًا آخر. وقد بدأ الملك بنفسه فغير اسم "امنحتب"، ومعناه آمون راض إلى "اخن اتن" (أخناتون) ومعناه "روح أتن"، وهو لم يشفق على اسم أبيه (أمنحتب الثالث) ولم تحترم ذكراه إذ سمح للمعاول أن تزيله من التماثيل وجدران المعابد وغيرها.

والمبادئ التي مثلها معبود أخناتون تتلخص فيما يأتي:

١) لا يوجد إلا إله واحد هو "إتن" المرموز إليه بقرص الشمس، وعلى هذا المبدأ يلزم أن تختفي جميع الآلهة الذين عبده المصريون من أقدم العصور التاريخية.

٢) عبادة "أتن" ليست مقصورة على مصر ويلزم أن تتعداها إلى كل ما يقع تحت الشمس، وفي هذا المبدأ تطور ظاهر في الديانة المصرية لأن آلهة المصريين كانوا في الأصل معبودات محلية لا يتعدى نفوذها البلدة التي تدين لها بالطاعة، وقد يزداد نفوذ

المعبود إذا أصبحت بلدته عاصمة المملكة وتصير إذ ذاك عبادته هي الدين الرسمي للبلاد كما حدث لمعبود هليوبوليس "إتم"، ولمعبود منف "بتاح"، ولمعبود طيبة "آمون"، ولكن التاريخ لا يحدثنا عن إله مصري واحد امتد نفوذه خارج مصر، حتى بعد أن أنشئت الامبراطورية المصرية، فقد ظل الحال كما كان عليه من قبل وقنع آمون بمركزه العتيد بمصر ولم يسع كهنته ولا الفراعنة إلى اعتباره معبودة للإمبراطورية، ولا شك أن أخناتون قد رفع منزلة معبوده فوق هؤلاء الآلهة المحليين إذ جعله إله العالم أجمع.

٣) في أول العهد بالدين الجديد كان المعبود "إتن" يمثل على شكل إنسان له رأس صقر فوقها قرص الشمس محاطًا بثعبان. وقد اتبع أخناتون في ذلك تقاليد المصريين من القدم إذ كانوا مثلون آلهتهم على هيكل إنسان تحمل في الغالب رأس طير أو حيوان. ولكنه أراد فيما بعد أن يقطع صلته بالقديم فمحى الصور والتماثيل التي يظهر فيها إتن بهيئة إنسان وابتدع مظهرًا آخر لهذا المعبود يظهر فيه قرص الشمس وقد توسطته حية وامتدت منه أشعة ينتهي كل منها بيد إنسان. وفي الغالب تكون اليد قابضة على رمز الحياة وإذا كان الملك ممثلًا في الصورة فإن هذا الرمز يكون قريبًا من أنفه دليلًا على أن الإله يمنحه الحياة.

٤) هل كان دين أخناتون ماديًا أو روحيا؟ أو بعبارة أخرى هل كان

أخناتون يعبد قرص الشمس بوصفه مادة لها أثر بليغ في الكائنات من حيوان وإنسان وجماد؟ أم كان يعبد القوة التي وراءه؟ هذا سؤال لم يتفق المؤرخون إلى الآن على الإجابة عنه، ولكن هناك اتجاها يعزز المذهب الروحي لأن معابد إن كانت خالية من التماثيل التي تظهره بشكل مادي ولأن الأناشيد التي وضعت للتغني بفضائل هذا المعبود ومزاياه تشير كاها إلى آثاره المتنوعة في الكائنات، فهو الذي خلق الارض والإنسان والدواب والطير، وأنشأ أرض مصر وسوريا وبلاد النوبة. وأطعم المصريين من النيل والأجانب من ماء السحاب، وهو الذي ينضج الجنين في بطن أمه وينفخ الروح في البيض فيبعث الحياة في الأفراخ. وهو الذي جعل الفصول متباينة تتراوح بين برد الشتاء وحر الصيف. وهو الذي يسطع في مظهره على شكل قرص الشمس المملوء بالحياة ويرسل أشعته فتتخلل ما في الوجود من مدن وقبائل وأنهار وكل ما هو من صنعه وتنفذ إلى أعماق البحار فتفيض بالحياة وهو الذي إذا أشرق نما الزرع واخضر وعاشت الكائنات وإذا غرب خيم الموت على العالم.

أما القائلون بمذهب أخناتون المادي فيدللون على ذلك بقولهم إن الشمس كانت تعبد بمصر من قديم الزمن مظاهر شتى وأسماء مختلفة مثل رع وهورس (الصقر) وخبر (الجعران) وإتم. وإن عبادته باسم قرص-الشمس إتن دليل على تقديس القرص بشكله المادي، ويتعارض هذا

الرأي مع العبارات التي وصف بها أخناتون معبوده حيث قال إنه "سيد الشمس اتن"، وهو الحرارة الكامنة في الشمس إتن. فهو يقدس الحرارة التي أحس بأنها ممزوجة بالحياة في جميع صورها وأشكالها. وظاهر من العبارتين المتقدمين أن أخناتون لم يستعمل كلمة إتن علمها على معبوده بل لفظة يدل على الألوهية إطلاقا وتخيل إلينا أنه استعملها بدلا من الكلمة المصرية القديمة ونشر والتي كانت تطلق على أي. إله أو ملك.

ورأى أخناتون أن دينه الجديد لم يصادف رواجا في طيبة حيث تغلغلت عبادة آمون في النفوس فأسس مدينة أخرى شمال طيبة بنحو ٣٠٠ ميل وخططها على جاني النيل جاعلا طولها من الشمال إلى الجنوب خمسة أميال ومن الشرق إلى الغرب ثمانية أميال. وشيد فيها القصور والمباني الفخمة وأقام فيها معبدا لأتن بلغ طوله نحو نصف ميل، ثم انتقل إليها مع أسرته وحاشيته وأتباعه المقربين وجعلها عاصمة الإمبراطورية وأطلق عليها اسم "أخت إتن"، (أخناتون) أي "أفق المعبود إتن"، وهي المعروفة الآن "بتل العمارنة".

ومات أخناتون ولم يعقب ولد وخلفه على العرش أمير يسمى سقرع كان زوجا لابنته "مرى اتن"، (المحبوبة من اتن) ولكن حكمه كان قصير الأمد، وجاء بعده أمير آخر يسمى "توت عنخ آتن"، وكان زوجًا لابنة أخناتون الثانية، وقد اتصل به كهنة آمون وأقنعوه بأن دين إتن لا يمكن أن يبقى دين مصر الرسمي لأن الشعب وقته ولا يرضاه وأن خير وسيلة للمحافظة على العرش العودة إلى الدين القدم فرضخ لنصيحتهم

وهجر مدينة اتن وجعل طيبة مقر حكمه وأعاد فتح المعابد وأباح حرية العبادة وغير اسمه وتوت عنخ أتن، ومعناه "صورة إتن الحية"، إلى "توت عنخ آمون" بمعنى "صورة آمون الحية"، وفي هذا كان القضاء على دين أخناتون.

وفي حياة أخناتون نواح تحار في فهمها العقول ويعجز التاريخ عن تعليلها. فالمعروف أنه جالس على العرش في السنة التاسعة من عمره وأنه أثار حركته الدينية لما بلغ الخامسة عشرة. وأنه مات في سن مبكرة لأن جثته التي وجدت في مقبرة أمه "طاي"، فحصت وقرر الخبراء أن صاحبها مات ولم يتعد السادسة والعشرين من عمره وأن حاشيته ذات القربي عنده لم تتعد أمه وزوجته نفرتت وزوج مرضعته وهوكاهن يسمى "آى"، فمن أي مصدر تلقى أخناتون وهو في مرحلة الشباب الأولى تعاليمه ذات الأفق الواسع. وأي ثقافة غذته فاستمد منها فلسفته؟ وأي وحي هبط عليه هذا الدين الذي سما عن الأديان القديمة؟ وأي قوة دفعته إلى القضاء على العقائد التي شب في أحضانها؟ وأي عامل بث فيه الجرأة ليقف وحيدا أمام أمة بأسرها فيغلق معابدها ويشرد كهنتها وهدم تماثيل آلهتها؟ وأي مؤثر دفعه إلى إهمال شون مملكته والتفرغ لنشر عقيدته؟ كل هذه الأسئلة لا تلقى جوابًا إذ لم يجد علماء التاريخ إلى الآن سبيلا إلى معالجتها وهم يعترفون بأن أخناتون سر لم يدرك كنهه وشخصية غامضة لم يسبر غورها.

الفصل السابع

بعض الصناعات المصرية

أتقن قدماء المصريين كثيرا من الصناعات واشتهروا بها وما زالت آثارهم فيها باقية إلى الآن:

١- صناعة الزجاج

قامت صناعة الزجاج في القرن السادس عشر قبل الميلاد وأقدم الآثار الزجاجية التي أمكن العثور عليها إلى الآن كرة زجاجية زرقاء اللون تحمل اسم امنحتب الأول (١٥٥٧ – ١٥٠١ ق.م) وقطعة من زجاج أبريق منقوش عليها اسم تحتمس الثالث (١٤٧٩ – ١٤١٧ ق.م) وقد كشف البحث في تل العمارنة عن بقايا مصنع كبير للنجاح ومنه أمكن الاهتداء إلى الطريقة التي كانت مستخدمة في صنعه أيام اخناتون منشئ هذه المدينة. وهي تتلخص في جمع السليكا النقية من حجر الكوارتز بعد تحطيمه ومزجها بالقلوي المأخوذ من رماد الخشب بعد حرقه ثم صهر المزيج في بوادق من الفخار.

مثل هذه الطريقة ينتج عنها زجاج عاتم نوعًا ما إلا أنه يقبل التلوين بالمواد الملائمة التي كانوا يمزجون المصهور بها وقد عدلت هذه الطريقة فيما بعد فاستخدموا النطرون مع الكوارتز المسحوق وحجر الجير.

والمواد التي استخدموها لتلوين الزجاج هي أوكسيد النحاس الأحمر للون الأحمر، وكربونات النحاس القاعدية للون الأزرق، ومركبات الحديد للون الأخضر، ومركبات الانتمون مع الرصاص للون الأصفر، ومركبات الحديد بنسبة كبيرة للون الأسود.

٢- التزجيج

نشأت صناعة الزجاج من صناعة أخرى سبقتها بآلاف السنين وهي تغطية الأواني الحجرية والفخارية بطبقة زجاجية ملساء ملونة. وقد خلف لنا العصر السابق للأسر آثارًا تدل على الخبرة بهذه الصنعة، فمنها تمائم من الكوارتز مكسوة بطبقة زجاجية ذات لون أزرق ضارب إلى الخضرة وخرز من الفخار مغطى بمثل هذه الطبقة.

وفي العصور التاريخية نرى قطعة من الفخار مزججة بلون أخضر ومنقوش عليها اسم الملك مينا. وتمثال مزجج لرأس إيزيس وآخر لحامل المروحة الملكية وهما من مخلفات الأسرة الخامسة والعشرين.

وفي عصر متقدم استعمل التزجيج في تلوين الآجر الكبير الذي يصف رأسيًا بدل الحصر حول جدران الحجر ومن ذلك نشأت صناعة القيشاني. وقد وجد في هرم زوسر مدخل لحجرة مصنوع من الأجر المزجج ومنقوش عليه اسم الملك وألقابه بألوان مختلفة، وقد نقل هذا المدخل بأجمعه إلى برلين.

واللون الشائع في التزجيج هو الأزرق أو الأخضر أو مزيج منهما. وقد كشفت الطريقة التي كانت متبعة في تجهيز المادة الملونة بعد فحص بقايا مصنع تل العمارنة وهي تتلخص فيما يأتي:

يجمع حصى الكوارتز ويسخن في فرن مدة طويلة حتى يتهشم ثم يصحن ويمزج بالجير وقلي الأعشاب وقليل من كربونات النحاس القاعدية ويسخن المزيج في وعاء مفتوح حتى يتحول إلى عجينة ثم يقلب مع الاستمرار في تسخينه حتى يتخذ اللون المطلوب سواء أكان أزرق أم أخضر أم بين هذا وذاك، ثم يترك ليبرد ويطحن ليتحول إلى مسحوق ناعم ومزج بالماء فيتكون منه طلاء هو الذي كان مستخدما في التزجيج.

وهناك طريقتان لاستعماله في الأولى تمزج بالصمغ أو بياض البيض ويستخدم طلاء رطبًا في عمل النقوش والزخارف، وفي الثانية يمزج بمادة صهارة كالقلى وتغطى به سطوح الأجسام المراد طلاؤها ثم تسخن في أفران إلى أن يتشرب سطحها المادة الملونة.

٣- مواد البناء

كانت المباني الأولى لقدماء المصريين مقامة من الآجر المجفف مثبتًا بالطين أو من جذوع النخيل مربوطًا بعضها ببعض بألياف نباتية ومغطاة بطبقة من الطين.

وتدرج فن البناء فاستخدموا الحجر الجيري والرمل والجرانيت وأقاموا منها المباني والمعابد والآثار الضخمة.

والمونة التي كانوا يستخدمونها لربط هذه الأحجار ليست هي النوع المستعمل الآن المكون من الجير والرمل إذ أن العنصر الأساسي فيها هو الجص (الجبس). وقد لوحظ أن المونة في الهرم الأكبر لا يزيد سمكها عن نصف المليمتر مع أنها تضم أحجارًا يبلغ ثقل الواحد منها بضعة أطنان فيلزم أن تكون من مادة لاصقة متينة.

وقد حللت عينات منها فوجد أنها تحتوي على نحو ٨٠ في المائة من كبريتات الكلسيوم (الجبس) والباقي كربونات الكالسيوم وأوكسيد الحديديك والرمل، والمعروف أن الجبس إذا سخن إلى درجة ١٢٠° م فقد ثلثي الماء الداخل في تركيبه، وتحول إلى لاصوق يسمى في التجارة باسم عجينة باريس وقد أطلق عليه هذا الاسم لوجود رواسب من الجبس بقرب باريس حيث تصنع هذه العجينة، ومن أهم خواصها أنها إذا مزجت بالماء تتشربه وترتفع درجة حرارتها ثم تجمد بسرعة.

والجبس موجود بمصر ممزوجا بشوائب من كربونات الكالسيوم والرمل وغيرهما. ومن الثابت أن المصريين قد كشفوا فيه هذه الخاصة فاستعملوه في المونة. ويؤكد لنا ذلك أنهم استخدموه في صب القوالب وصنع التماثيل لأن عجينة باريس عندما تجمد تتمدد قليلا فتملأ تجاويف القالب وتتخذ شكله تمامًا.

واستخدموه أيضًا طلاء لاصقا فوق جدران المباني والمعابد وغيرها ليكون أساسًا تنقش عليه الرسوم والزخارف الملونة.

والواجب أن تسمي العجينة المتخذة منه عجينة مصر لا عجينة باريس لأن قدماء المصريين استخدموها منذ خمسة آلاف سنة.

٤- المواد

المصريون أول من استعمل الحبر في الكتابة. وقد صنعوه بألوان متعددة منها الأحمر المأخوذ من المغرة والأصفر المأخوذ من الأهرة والأزرق أو الأخضر المصنوع من مركبات النحاس. أما الأسود فقد جهزوه من العثان الناتج من حرق مواد عضوية معينة كاللبان. وتتلخص الطريقة التي اتبعوها لتحضير المداد في طحن المادة الملونة حتى تتحول إلى هباء ناعم ثم نقعها في الماء مع الاستعانة مادة غروية كالصمغ.

٥- المشروبات الروحية

عرف المصريون منذ الأسرة الأولى نوعين من المشروبات الروحية هما البيرة والنبيذ، وكانوا يصنعون البيرة من حبوب القمح أو الشعير ولكن لا يعرف بالضبط الطريقة التي سلكوها في ذلك. ومن الثابت أنهم كانوا يستعينون بخميرة الخبز لتحولن السكر إلى كحول. أما العملية السابقة لهذه وهي تحويل النشا في الحبوب إلى سكر المولوتوز فسرها لم يكشف إلى الآن وربما كانوا يستنبتون الحبوب ليتكون فيها الدياستوز الذي يقوم بهذه الوظيفة.

أما النبيذ فكانوا يصنعونه من العنب أو البلح أو الرمان بتعريض العصير للهواء فيتخمر من نفسه ثم يعبأ في أوان محكمة القفل منعًا لتحوله إلى خل.

٦- تقليد الأحجار الكريمة والذهب

استخدم قدماء المصريين أنواعا كثيرة من الأحجار الكريمة في الحلى وعمل التمائم والجعارين وترصيع الاثاث وغير ذلك. وأشهرها الفيروز والزمرد واللؤلؤ والعقيق والزبرجد واللازورد والكوراتز والكالسيت. ومعظمها كان موجودًا بمصر.

وقد تمكنوا من تقليد هذه الأحجار ليستخدمها الفقراء وساعدهم على ذلك إتقانهم لصناعة الزجاج إذ كانوا يلونونه بالألوان الطبيعية لهذه الأحجار حتى ليتعذر التمييز بين الحقيقة والتقليد.

كذلك استطاع المصريون تقليد الذهب وتشهد بذلك أوراق البردي التي وجدت في قبر بطيبة سنة ١٨٢٨ وجزء منها محفوظ الآن بليدان والآخر في استكهلم. وهي مكتوبة باللغة الإغريقية سنة ٣٠٠ ميلادية تقريبًا ولكنها منقولة من نصوص مصرية قديمة ويرجح أنها ترجع إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد.

ويتضمن الجزء الأول منها وصفا لتحضير السبائك التي تشبه الذهب والفضة. ومن الأمثلة التي وردت بها ما يأتي.

"خذ جزأين من الرصاص وجزءً من الذهب ولسحقهما جيدًا حتى يصير كالدقيق ثم امزجهما واصنع منهما عجينة مع الصمغ وغط خاتما من النحاس بجانب من العجينة وسخنه وكرر ذلك حتى يأخذ النحاس لون الذهب. وإنه ليتعذر كشف التقليد لأن النار تلتهم الرصاص وتترك الذهب الذي يمكن اختباره إذ ذاك بحجر المس".

ويشمل الجزء الثاني من الأوراق البردية طرق تقليد الأصباغ الغالية والأحجار الكريمة كالزمرد وغيره.

خاتمة

لما مات الفرد العظيم (Alfred The Great) ملك انجلترا وبطلها الفذ أقام له أبناء وطنه أثرًا تذكاريًا في بلدة وينتج (wantage) مسقط رأسه وأرادوا أن يخلدوا ذكراه بجملة يسطرونها عليه، فلم يشيروا إلى جهاده مع الدنماركيين الذين غزوا بلاده وأرادوا القضاء على قوميتها، ولم يتعرضوا لبطولته الحربية ولكنهم قالوا "إنه وجد العلم ميتًا فأيقظه والثقافة مهملة فأحياها" كأنهم أدركوا أن عظمة الملوك لا تقاس إلا بقدر تشجيعهم للعلم وتعضيدهم للثقافة، وأن الأمة لا تحيا إلا بهما.

ولقد عرضنا فيما تقدم صورًا لما اتسع له المقام من أحوال قدماء المصريين ونبذا من تاريخهم وهي على ضآلتها، بالنسبة لما عرف عنهم كافية لإثبات أن مصر مهد الثقافة الفنية والعلمية والخلقية. ولكنا أهملنا هذا التراث العظيم فهجرنا وانتقل إلى الإغريق ثم إلى الغرب ومن هؤلاء إلى أوروبا فكان نواة صالحة لما تتمتع به الآن شعوبها من حضارة ورقي.

وليس أمامنا الآن من سبيل إلى التقدم واستعادة مجد آبائنا إلا عن طريق التثقيف العلمي والفني والخلقي، بهذا وحده تقوى على التنازع والتدافع اللذين يستلزمهما جهاد الشعوب في عصرنا الحاضر.

الفهرس